كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

قاسم أمين

وتحرير المرأة

د. محمد عمارة



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عباد

العدد ٣٥٢ - جمادى الأولى ١٤٠٠ - ابريل ١٩٨٠

No. 352 — April 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى • وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج• م• ع• بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــــة
الفنان احمــد الوردجى

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

دكتور محمد عمارة

قاسم أمين

وتحرير المرأة

دار الهلال

تقديم

ليست الريادة هى المعيار الوحيد الذى يكسب المفكر والمصلح مكانا عاليا وهاما فى حركة تطور المجتمع الذى يعيش فيه ، وان تكن لها ميزاتها ووزنها وتكاليفها التى تضفى على أصحابها الكثير من المجد والتقدير .

وفيما يتعلق بارتياد المفكرين والمصلحين فى شرقنا العربى الاسلامى ، فى العصر الحديث ، لميدان الدعوة الى تحرير المرأة المسلمة والشرقية ، هناك خلاف قائم بين عدد من الذين عرضوا بالتأريخ لذلك الحدث الذى حاول به هؤلاء المفكرون والمصلحون أن يتخطوا بالمرأة نطاق حريم العصور « المملوكية ـ العثمانية » المظلمة الى أعتاب ورحاب الاستنارة واليقظة والتفتح التى أفاءها على الشرق عصر التنوير الذى بدأته مصر فى عهد محمد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨ م) ، وقادت الشرق الى ساحاته منذ ذلك التاريخ .

فهناك من يرى ان فضل الريادة فى هذه الدعوة ، الى تحرير المرأة معقود لقاسم أمين ، وان أول صيحة لهذا التحرير هى صيحة قاسم أمين ، فى كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) (١) ومؤدى هذا الرأى ان الدعوة الى

(١) د. محمد حسين هيكل (تراجم مصرية وغربية) ص ١٥٢ ـ طبعة القاهرة ـ مطبعة مصر ـ بدون تاريخ .

تحرير المرأة لم تعرفهـــا مجتمعاتنا الشرقية ، ومصر بالذات ، قبل تاريخ صـــدور كتـاب (تحرير المرأة) فى سنة ١٨٩٩ م .

وهنــاك من يرى ان الأتراك العثمانيين كانوا أسبق من المصريين فى سلوك هذا السبيل ، وان الآستانة قد ارتفعت فيها هذه الصيحة قبل القاهرة ، وان صحيفة (الجوائب) قد شهدت دعوة صاحبها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ــ ١٨٨٨ م) الى تحرير المرأة قبل أن يولد قاسم أمين .. ويعللون سبق الأتراك الى هذا الميدان « بـكثرة اختلاطهم بالأجانب ، وسبقهم فى الاطـلاع على أسـباب التمــدن الحديث » (٢) .

واذا ما كان السؤال : أيهما أسبق فى الدعوة لتحرير المرأة : أحمد فارس الشـدياق ؟ أم قاسم أمين ؟ فان البداهة تعطى السبق للشدياق .. فهو قد عاش ومات قبل أن يكتب قاسم عن المرأة وتحـــريرها ، وصحيفة (الجوائب) قد صدرت (١٨٦٠ م ــ ١٢٧٧ هـ) أى قبل مولد قاسم أمين بنحو أربع سنوات ..

ولـكننا لن نعثر على الحقيقة فى قضية الريادة لهذه الدعوة اذا نحن وقفنا عنـد هذه الحـدود التى يرسمها أصحاب هذا الخلاف .. ذلك ان هناك وقائع أخرى نراها هامة وضرورية لمن يريد الوصول الى كلمــة سواء فى هذا الموضوع .

فأولا : كانت مصر ، فى ظل الدولة المدنية الحديثة ، التى قـاد انشاءها محمد على أسبق الى حركة التمـدن

(٢) « الهلال » تابين قاسم أمين . انظر ص ٦ من تقديم الناشر لكتاب قاسم أمين (أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ) طبعة الاسكندرية سنة ١٩١٣ م .

الحديث بكل مناحيها وأشكالها ـ ومنهـا الدعوة لتحرير المرأة ـ من المجتمع العثمانى ، ولقـد بدات انعكاسات التجربة المصرية تعمل عملهـا وتحدث باثيراتها في الدولة العثمانية ذاتها ، حتى قيل : « ان النهضة العثمانية ، بـكل فروعها ، مسبوقة فى مصر ، ومقتبسة عنها (٣) . . » فالريادة هنا لمصر ، لا للأتراك العثمانيين .. وذلك اذا أخذنا قضية التمدن الحديث والدخول الى عصر النهضة والتنوير على وجه الاجمال .

وثانيا : اذا نحن اردنا التأريخ لنشأة المدارس العربية والوطنية التى قامت لتعليم البنات بعض الفنون والعلوم ، وهى تلك التى انشأها محمـد على للتمريض ، وغيره من الفنون .. وهو تاريخ سـابق على صـدور (الجوائب) فى ستينات ذلك القرن بثلاثة عقود تقريبا .

واذا نحن نقبنا فى الفـكر العصرى الذى شهدته مصر فى ظل تلك الدولة الحديثة ومجتمعها ، وجدنا الدعوة ، غير المباشرة ، الى تحرير المرأة وتعليمها معلنة فى كتاب رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م) « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » وتاريخ تأليفه سـابق على أكتوبر سنة ١٨٣٠ م ، وطبعته الأولى قد صدرت سنة ١٨٣٤ م (٤) وهو قد ترجم الى التركية فى ذلك التاريخ .

كما نجد الدعوة الى تقريب الفروق بين حق المرأة وحق الرجل فى التعليم تظهر فى مداولات (لجنة تنظيم التعليم) التى كان الطهطاوى عضوا بهـا ، فتقترح هذه اللجنـة فى سنة ١٨٣٦ م « العمل لتعليم البنات فى مصر » تعليما

---

(٣) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى ، دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة . ص ٣٥٢ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

(٤) « الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى » دراسة وتحقيق دكتـور محمد عمارة ، جـ ١ ص ٧٨ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ .

يتخطى حدود الضرورات العملية التي كانت تحكم مناهج المدارس التي كانت قائمة للبنات في ذلك التاريخ .

وهكذا تسبق مصر ويسبق المصريون الاتراك في الدعوة الى تعليم المرأة وتغيير أوضاعها .. ويسبق الطهطاوى الشدياق ، وغيره ، في ارتياد هذا الميدان .. ثم يأتى كتابه (المرشد الأمين لتربية البنات والبنين) الذي كتبه في بداية السبعينات بتكليف من (ديوان المدارس) كي يدرس في مدارس البنات .. يأتى حاويا لكثير من الآراء ووجهات النظر التي يمثل مجموعها أول بناء فكرى شبه متكامل يكرسه مفكر عربي لقضية تحرير المرأة في عصرنا الحديث .

تلك هي قضية الريادة في هذا الميدان .. فهي لمصر محمد علي ، وليست لتركيا آل عثمان .. وهي للطهطاوى ، وليست لأحمد فارس الشدياق أو قاسم أمين .

***

ولكن .. تبقى لقاسم أمين ، في هذا الميدان ، ميزة ينفرد بها عن كل من عداه من المفكرين والمصلحين الذين أسهموا بسهم في هذا السبيل .. فكل من عدا قاسم أمين كان حديثهم عن تحرير المرأة والنهوض بها أمراً من أمور كثيرة تناولوها فيما أبدعوا من أفكار وآثار .. أما قاسم أمين فهو الوحيد من بين كل هؤلاء الذى وهب كل جهوده وجميع آثاره ــ تقريبا ــ لهذه الدعوة ، حتى لقد ذهب علما عليها ورمزا لها ، تتداعى قضاياها وحجج أصحابها اذا ذكر اسمه في أي وقت واى مجال .

بل ان كل الجوانب الاخرى التي مثلت وتمثل القسمات المتعددة لفكر قاسم امين وموقفه الاصلاحي ، وهي الجوانب التي ستكشف عنها دراستنا هذه للمرة الأولى ،

انما جاءت من خلال دراسته لهذه القضية ودعوته قومه لهذا الأمر الخطير .

- فمنهجه الاجتماعى فى البحث .. ومذهبه فى رؤية التاريخ وتطور المجتمعات .
- وانتماؤه الاجتماعى والفكرى .. والمجتمع الذى بشر به .
- وموقفه من « التمدن الاسلامى » وفهمه لهذا التمدن .
- ودعوته فى الاصلاح الاجتماعى .. والتربوى ..
- وموقفه من تبلور الشخصية المصرية الحديثة .. ومزاجه المعتدل فى الوطنية .. وتقييمه لتجربة مصر الحديثة ..

كل هذه القسمات ، وغيرها ، فى فكر قاسم أمين ومذهبه الاصلاحى ، قد تبدت من خلال حديثه عن القضية الأساسية التى نذر نفسه لها .. وهى قضية المرأة الشرقية والمسلمة ، والعمل على الانتقال بها من ظلمات جاهلية العصور الوسطى الى أنوار تحضر العصر الحديث .

فاذا لم تكن ريادته ريادة سبق .. واذا لم يكن سبقه سبق زمان وتاريخ .. فان له الريادة فى تكريس كل جهده الفكرى لهذه القضية قبل غيرها ، بل ودون غيرها — تقريبا — من قضايا الاصلاح ..

واذا كانت هذه الدراسة التى نقدمها عن قاسم أمين ستضع ، من خلال فصولها القادمة ، فكر القارىء والباحث على حقائق وقسمات فى فكره لم يلتفت اليها كثير من دارسيه ، فان الفضل فى ذلك — بعد المنهج

العلمى الذى نتناول به دراسة فكره ـ يعود الى مجىء هذه الدراسة ثمرة للنظرة الشاملة لأعماله الفكرية الكاملة ، خصوصا وانها الدراسة الأولى التى تهتم كثيرا برصد تطوره الفكرى . بعد أن يسرت لنا تلك المهمة ترجمة كتابه « المصريون » الذى رد به على الدوق الفرنسى « داركور » .. والذى كان أول كتاب يؤلفه قاسم أمين .

لقد ظل هذا الكتاب الهام بعيدا عن قراء العربية منذ صدوره بالفرنسية سنة ١٨٩٤ م حتى تاريخ تقديمنا له بالعربية ، ضمن أعماله الكاملة سنة ١٩٧٦ م .. ومن هنا كان الجديد الذى تقدمه هذه الدراسة عن فكر قاسم أمين ، مرتبطا ونابعا من الجديد الذى قدمته طبعتنا المحققة لاعماله الكاملة منذ خمس سنوات .

فاليوم قد اتيحت لقراء العربية نصوص قاسم أمين وأعماله الكاملة للمرة الأولى .

واليوم قد اتيحت للغة العربية فرصة امتلاك نص كتابه « المصريون » لأول مرة .

واليوم تتاح لقراء العربية امكانية رصد جوانب فكره وقسمات مذهبه الاصلاحى .

وهى الأمور التى نرجو أن يكون قد حالفنا فى انجازها التوفيق .

دكتور
محمد عمارة

بطاقة حياة

(ان اللذة التى تجعل للحياة قيمه ، ليست حيازه الذهب ، ولا شرف النسب ، ولا علو المنصب ، ولا شيئا من الاشياء التى يجرى وراءها الناس عاده .. وانما هى ان يكون الانسان قوه عامله ذات اثر خالد فى العالم ..)

قاسم امين

فى هذه « البطـاقة » نكشف المعـالم الهامة والبارزة فى حياة قاسم أمين ، وذلك حتى تكون سطورها « شريطا » يعرض ، فى ايجاز شديد ، حقائق هذه الحياة وتطورات صاحبها فى حيـاته الخـاصة والعـامة .. فهى ليست « ترجمة » ـ بالمعنى المتعارف عليه ـ لحياته ، وانما هى « بطاقة » لهذه الحياة تكشف معالمها البارزة فى عدد من النقاط :

ـ ١ ـ

★ ولد قاسم أمين لأب تركى عثمانى وأم مصرية من صعيد مصر .. فوالده محمد بك أمين كان قبل مجيئه الى مصر واستقراره بهـــا ، الوالى التركى على اقليم « كردستان » احدى ولايات الدولة العثمانية فى ذلك التاريخ .

وعندما ثارت « كردستان » ضد الدولة العثمانية ، وأعلنت استقلالها وانفصالها عن الآستانة ، كان واليها محمد بك أمين فى الآستانة ، فظل بها ، حتى منحته الدولة ، عوضا عن امارته ، اقطاعات فى مصر ، باقليم « البحيرة » ، قرب مدينة « دمنهور » ، فنشأت علاقته

بمصر ، وقرر الاقامة بهـــا ، وكان ذلك فى بداية حكم الخديوى اسماعيل .

★ وفى مصر تزوج محمد بك أمين احدى بنات أسرة مصرية من صعيد مصر ، هى ابنة أحمد بك خطاب ، شقيق ابراهيم خطاب باشا .

★ وفى مصر كذلك التحق محمد بك أمين بالجيش المصرى على عهد الخديوى اسماعيل ، وفيه أرتقى حتى بلغ رتبة « أميرالاى » وشـــغل مركز قائد ســـلاح « المرابطين » .

★ وهناك ما يرجح ان تاريخ ميلاد قاسم أمين ـــ وهو الابن الأكبر لهـــذه الأسرة ـــ كان فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ م (٥) . وهناك خلاف فى محل ميلاده .. هل هو الاسكندرية ؟ أم ضاحية « طرة » القريبة من القاهرة ؟ .. ولعل الأم كانت تقيم بالاسكندرية ، على حين كان عمل الأب فى « طرة » ، ومن هنـا نشأت أسـباب اللبس والاختلاف .

★ وفى الاسكندرية قضى قاسم أمين أولى سنواته فى التعليم .. فلقـــد دخل مدرسة « رأس التين » الابتدائية ، وكانت يومئذ مدرسة أبناء الارستقراطية من أبناء الأتراك والشراكسة والأثرياء .

★ وبعد حصول قاسم على شهادة الابتدائية انتقلت الأسرة من الاسكندرية ، واستقر بها المقام فى القاهرة ،

---

(٥) يخطىء كل من : سركيس فى معجم المطبوعات العربية والمعربة » ومحمد رضا كحالة فى « معجم المؤلفين » و « الموسوعة العربية الميسرة » فى تحديد سنة ميلاده ، فيجعلونها سنة ١٨٦٥ م .. ولكن الزركلى فى « الاعلام » ، وكذلك كتاب ترجمته واصدقاؤه ومعاصروه يجعلونها سنة ١٨٦٣ .

وسكنت في حي الارستقراطية القاهرية يومئذ ، حي « الحلمية » .. والتحق قاسم بالمدرسة التجهيزية ــ الخديوية ــ والمدارس التجهيزية في ذلك العصر تقابل المدارس الثانوية هذه الأيام .. وفى هذه المدرسة دخل قاسم أمين القسم الفرنسي .

★ وبعد المرحلة التجهيزية التحق قاسم بمدرسة الحقوق والادارة ــ وهى مدرسة عليا كانت البديل لكلية الحقوق في غياب الجامعات ــ ومنها حصل على « الليسانس » ، وهو فى العشرين من عمره ، سنة ١٨٨١ م .. وكان أول خريجيها فى ذلك العام .

★ وكان قاسم أحد طلاب الحقوق الذين اقتربوا من حلقة جمال الدين الأفغاني ومدرسته الفكرية التى ازدهرت بمصر فى ذلك التاريخ .

ــ ٢ ــ

★ اتجه قاسم أمين ، بعد تخرجه وحصوله على الليسانس ، الى العمل بالمحاماة .. وكانت لوالده صلات وثيقة مع المحامى الكبير مصطفى فهمى باشا ــ الذى تولى فيما بعد رئاسة الوزارة فى ظل الاحتلال الانجليزى لمصر ــ فالتحق قاسم بالعمل فى مكتب مصطفى فهمى للمحاماة .

★ ولم تطل مدة عمل قاسم بمكتب مصطفى فهمى باشا للمحاماة .. ففى نفس العام ــ ١٨٨١ م ــ سافر فى بعثة دراسية الى فرنسا ، وهناك انتظم فى جامعة « مونبلييه » .. وبعد دراسة استمرت فيها أربع سنوات أنهى دراسته القانونية بتفوق فى سنة ١٨٨٥ م .

★ وأثناء مقـام قاسم أمين بباريس ، حدثت بمصر أحداث الثورة العرابية التى قادها وشارك فيهـا عديد من تلامذة جمال الدين الأفغانى ، والحزب الوطنى الذى كونه بمصر سرا فى أواخر السبعينات .. ثم انتهت هذه الثورة بالتدخل الانجليزى المسلح ، واحتلال انجلترا لمصر ، ومحاكمة زعماء الثورة ونفيهم من البلاد .

★ ثم استقر المقام بالأفغانى ـ بعد فك اقامته الجبرية بالهند ـ وكذلك بمحمد عبده ـ بعد نفيه من مصر ـ اسنقر بهما المقام بباريس منذ سنة ١٨٨٤ م ، وهنـاك أصدرا مجلة « العروة الوثقى » لســـان حال لتنظيم « العروة الوثقى » السرى الذى انتشرت فروعه من مصر الى الهند ، والذى قام أساسا لمناهضة الزحف الانجليزى على الشرق ، ولمناوأة احتلالهم مصر بالذات .

وفى تلك الفترة عادت صلات قاسم أمين مع الأفغانى ومدرسته ، فكان « المترجم » الخاص بالامام محمد عبده فى باريس .

★ وفى فرنسا قرأ قاسم لمفكرى أوربا الـكبار ، ومن بين الذين قرأهم : نيتشـة (١٨٤٤ ــ ١٩٠٠ م) وداروين (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢ م) وماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣ م) .

وفى فرنسا كذلك حاول قـاسم أمين الاقتراب من المجتمع الفرنسى واقامة الصلات الوثيقة مع نمط حياة الفرنسيين الاجتمـــــاعى .. غير أن طبيعته الشرقية الخجولة ، وسمة الانعزالية التى ميزت شـخصيته لم تمكنه من الذهاب بعيدا فى هذا المضمار ..

فهناك صداقة ، بل وحب ، قد نمـــا بينه وبين « سلافا » ، تلك الفتاة الفرنسية التى زاملته فى الدراسه بجامعة مونبلييه .. ولكن هذه الصداقة وذلك الحب قد

ظل « رومانسيا » ، وكانت أهم آثاره تلك المشاعر النبيلة التى بدات تتولد فى نفس قاسم نحو المرأة منذ ذلك الحين ، وتلك الأحلام الوردية التى بدات وظلت تراوده عن قيام المرأة بدور الوحى والحافز والمساعد فى حياة الرجل ، ومن ثم المجتمع ، بدلا من بقائها قيدا يشد خطو الرجل والأمة الى الوراء .. لقد بدا يحلم بالانسانة التى تجمع بين جمال الأنثى وعقل الرجل ؟! .

كما وقف هذا الخجل الشرقى وتلك المحافظة والانعزالية ، اللذين تحلت بهما طبيعة قاسم امين ، حائلا بينه وبين الانسجام مع مرح ذلك المجتمع وما كان لرجاله بنسائه من علاقات لم تكن مستساغة عند أغلب الشرقيين الذين ذهبوا الى باريس فى ذلك التاريخ .

فقاسم ذهب الى باريس بعد رحلة الطهطاوى اليها بخمس وخمسين عاما ، والثانى كان شيخا ازهريا ، وواعظا بالجيش ، وامام الدين للبعثة الدراسية التى ذهبت تتعلم هناك .. ومع فارق الزمن وفارق الثقافة والبيئة .. فقد كان الطهطاوى أكثر تقبلا وتفهما لعادات الفرنسيين الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية ، وأقل محافظة فى تقييمه لحفلاتهم واختلاط رجالهم بنسائهم من قاسم أمين ! .

فالطهطاوى ينفى أن يكون سفور المرأة الفرنسية مفضيا ، بالتبعية والحتم ، الى التبذل والخروج عن مقتضيات العفاف .. فالفرنسيون يحافظون – مثلنا – على « العرض » ويسمونه شرفا ، بل « ويقسمون به عند المهمات ، واذا عاهدوا عليه ، وفوا بعهودهم ! » .. « هم مثل العرب فى هذا الأمر .. » أما حدوث « اللخبطة » – كما يقول – بالنسبة لعفة النساء ، فليس مبعثه السفور

أو الاختلاط ، بل ولا شيوع العشق فى المجتمع الفرنسى ، لأن منشأ « العفة » أو « اللخبطة » انما يعود الى « التربية الجيدة والخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة ، والالتئام بين الزوجين » .. ومن ثم فان الفرنسيين « تقل فيهم دناءة النفس » فيما يتعلق بعلاقات الرجال مع النساء ! (٦) .

تلك كانت انطباعات الطهطاوى عن هـذا الجانب من جوانب المجتمع الفرنسى .

اما قاسم أمين فانه كان أكثر تحفظا فى التقييم لهذا الجانب من حياة الفرنسيين ، فهو يكتب عنه فيقول : « .. يضم المجتمع الأوروبى الرجال والنساء دائما ، فيسهل الاتصال بينهم ، وتنشأ فيما بينهم علاقات الفة وصداقة وحب ، وهذا الاختــــلاط بين الجنسين فى الاجتماعات يسبغ عليها عذوبة ورقة ، فالسحر الذى تشيعه المرأة فى كل مكان توجد فيه ، شىء ممتع ونفاذ كعطر الزهور . وفى مثل هـذه الاجتماعات ينعم المرء دائما بالمرح ، وغالبا ما يتودد للغير ، ويخرج فى النهاية مفعم القلب بالرضا ! » .

ثم يستطرد متحدثا عن تجربته الذاتية مع هذا النمط من الحفــلات الباريسية فيقول : « وقد أتيح لى تقييم هذا السحر الفــــريد ، وكان شأنى شأن الآخرين فى الاحساس بقدره ، وخاصة فى وجود امرأة تجمع حصافة الفــكر الى جمال الجسد . وقد رمت بى طبيعتى الخجولة بين الاضطراب والحيرة أكثر من مرة غير ان هذا لم يقلل من حبى لهذه اللقاءات الشيقةالتى يهتم فيها الجميع بخلق جو

(٦) « الاعمال الـكاملة لرفاعة الطهطاوى » جـ ١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

البهجة و الاستمتاع به ! .. » (٧) .

★ وفي صيف سنة ١٨٨٥ م عاد قاسم أمين الى القاهرة ، وذلك بعد أن عمل هناك مع أستاذه « لرنود » ــ عقب التخرج ــ عدة شهور .

ــ ٣ ــ

★ ويوم احتفال قاسم أمين بعيد ميلاده الثاني والعشرين ــ أول ديسمبر سنة ١٨٨٥ م ــ صدر قرار تعيينه بالقضاء ، في النيابة المختلطة .. فبدأ طريقه لتحقيق طموحه ، وخاصة ما يتعلق منه باثبات جدارة المصرى ونديته للأوروبى فى تولى الوظائف العامة والنهوض بأعبائها .. وبوجه أخص فى حقل مؤسسة قضائية وطنية تكون موضع ثقة المقيمين بمصر ، أجانب ومصريين على حد سواء .

★ وبعد شهور من عودة قاسم الى أرض الوطن توفى والده محمد بك أمين .

★ وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م نقل من النيابة المختلطة الى قسم قضايا الحكومة .

★ وفي يونيو سنة ١٨٨٩ م رقى الى منصب رئيس نيابة « بنى سويف » ، بصعيد مصر .. وهناك بدأ يطبق مفاهيمه وآراءه في فلسفة العقاب ودوره فى الاصلاح الاجتماعى .. فلقد وجد الكثيرين من الذين وضعتهم الادارة الحكومية ، ظلما ، في سجن « بنى سويف » ففك قيود أغلبهم وأطلق سراحهم ! .

(٧) « الاعمال الكاملة لقاسم أمين » دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة ، جـ ١ ص ٢٩٢ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م .

★ وفى سنة ١٨٩١ م أنتقل رئيسا لنيابة « طنطا » .. حيث واجهته هناك حادثة هامة وقف ازاءها يبحث عن خيار بين ما يفرضه عليه القانون وما تدعوه اليه الوطنية والوفاء لمدرسة الأفغانى التى انتسب الى فكرها ومنح رجالها الحب والاعجاب منذ عهد صباه ..

فلقد وقع عبد الله نديم (١٨٤٣ ـ ١٨٩٦ م) ـ أبرز زعماء الثورة العرابية وأصلب قادتها ـ فى قبضة الشرطة، وذلك بعد اختفاء أسطورى دام تسع سنوات .. وجىء به الى رئيس النيابة قاسم أمين ؟! .. فأكرم لقاءه ، وأعطاه مالا من عنده ، وهيأ له فى محبسه أقصى ما يمكن من ظروف الرعاية والراحة .. ثم قرر أن يقوم بالسعى لدى المسئولين فى العاصمة كى يفرجوا عنه ويطلقوا سراحه ، فسافر الى القاهرة يلتمس له العفو .. وبعد حملة صحفية ، تبنت هذا المطلب ، قررت الوزارة العفو عن عبد الله نديم مع ابعاده الى الشام فى ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩١ م ، بعد منحه مبلغ مائة وخمسين جنيها ! .

ونفس الصنيع كان يكرره قاسم أمين مع الطلبة المقبوض عليهم فى المظاهرات ! بل كان يخفى بعضهم حتى يستصدر لهم العفو من السلطات ! .

★ وفى ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٢ م عين قاسم أمين نائب قاض فى محكمة الاستئناف .. ثم رقى بعد عامين من ذلك التاريخ الى منصب مستشار ، وكان يومئذ فى الحادية والثلاثين من عمره .

★ ولقد عرفت عنه طوال مدة عمله بالقضاء دعوته الى جعل القضاء المصرى والمحاكم الأهلية الوطنية جهة التقاضى والمحاكمة بالنسبة للأجانب الذين يعيشون بمصر ـ باستثناء أحوالهم الشخصية ـ وذلك حتى تزول

الازدواجية القضائية التى فرضتها على مصر امتيازات الاجانب ونفوذ الاستعمار .

★ وخارج نطاق العمل القضائى امتد نشاط قاسم امين .. فكتب فى صحيفة « المؤيد » عددا من المقالات دون توقيع .. وأصدر كتابه « المصريون » ـ بالفرنسية ـ سنة ١٨٩٤ م .. يرد به هجـــــوم الدوق الفرنسى « داركور » على مصر والمصريين .. كما أصدر « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ، و «المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠ م .

كذلك شارك فى نشاط « الجمعية الخيرية الاسلامية » ، وكانت تنشىء المدارس للفقــراء ، وتنهض بضروب من الخدمة والمساعدات للمعوزين والمنكوبين .

وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ م تولى سكرتارية الاجتماع الذى عقد بمنزل سعد زغلول باشا ، والذى صدر عنه البيان الشهير الموجه للأمة يدعوها للاســـهام فى انشاء الجامعة الأهلية المصرية .. وعندما تخلى سعد زغلول عن رئاسة اللجنــة التى نيط بهـــــا أمر الدعوة لانشاء الجامعة ، بعد تعيينه ناظرا ـ (وزيرا) ـ للمعارف ، تولى رئاسة اللجنة بدلا منه قاسم أمين .. وكانت آخر أعماله العامة ذلك الخطاب الذى ألقاه « بالمنوفية » ، بمنزل حسن زايد ، عن الجامعة والتعليم الجامعى المرجو لمصر والمصريين .. فلقد القى خطابه فى ١٥ ابريل سنة ١٩٠٨ م ، وفارق الحياة فجأة بعد ذلك التاريخ بأسبوع ، اى فى ليلة ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٨ م .. وكانت مصر تستعد للاحتفال بافتتاح الجامعة التى نهض فى سبيل قيامها بدور عظيم .

ـ ٤ ـ

★ أما منزل قاسم امين وحيـــاته الأسرية فلقـــد كانا

متسقين مع مزاجه الهادىء وروحه الفنانة واحساسه الرقيق .. فهو قد تزوج فى سنة ١٨٩٤ م من زينب ، ابنة أمير البحر التركى أمين توفيق .. وكان صديقا لوالد قاسم أمين .. وكانت قد اشرفت على تربية زوجته هذه ، فى طفولتها وصباها ، مربية انجليزية .. وكان قاسم يقضى مع زوجته ويخصها من وقته بساعتين يوميا ، وبشكل منتظم من الخامسة الى السابعة مساء ! .

ولقد أنجب بنتيه : زينب ، التى أحضر لها مربية فرنسية .. وجلسن ، التى أحضر لها مربية انجليزية .

★ أما مكتبته فكانت تشغل من منزله ثلاث غرف .. ومع كتبه كان يقضى ، يوميا وبانتظام ثلاث ساعات ، من السابعة حتى العاشرة مساء ! .

★ أما أجازته الصيفية فكان يقضيها مع أسرته بتركيا ، حيث كان لوالد زوجته منزل هناك .

***

هكذا كانت حياة قاسم أمين ، وكانت شخصيته .. فنان وأديب نحا نحو الاصلاح الاجتماعى .. ومفكر يحترم رأيه ، ويدافع عنه باصرار ، ويتصدى لأعتى الموجات وأعنف الأعاصير التى سببها له موقفه من قضية المرأة ودعوته الى تحريرها ـ بدءا من تحريم دخوله الى قصر الخديوى بعد اصدار « تحرير المرأة » ، الى النقد والتهجم والسباب والاتهامات التى كيلت له من أغلب قطاعات الفكر ودوائر الثقافة وجمهرة الكتاب .. الى سعى فئات وأفراد من العامة والبلهاء والمتعصبين الى ازعاج حياته الأسرية الهادئة ، ظنا منهم أن دعوته الى تحرير المرأة تبيح لهم اقتحام منزله والطلب الى زوجته مخالطة من يريد الاختلاط !؟ .

ومع كل ذلك ، ومثله كثير ، عاش قاسم عمره القصير ـ بمقاييس السنوات ـ بروح الفنـــان ، فاعطاه عمقا ومنحه أبعادا تخطت به حدود الزمن والسنوات .

وكما يقول الدكتور محمد حسين هيكل : لقد كانت « روح قاسم أمين روح أديب .. كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة ، التى لا تعرف الطمأنينة ، ولا تستريح الى السكون ، وكانت الروح المشوقة التى لا تعرف الانزواء فى كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بسكنها ما فى حياة الكون وحركته من نشاط وجمال . بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحيا والهاما أكثر مما تؤدى المباحث الجافة منطقا وجدلا . وكانت هذه المناظر تذكى شعوره الحساس بجمال الحياة ، وتدعوه الى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع ، وذلك لا يؤتاه الا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم ! » (٨) .

هكذا كان قاسم أمين ـ يرحمه الله .

---

(٨) « تراجم مصرية وغربية » ص ١٥٢ .

قسمات المنهج الاجتماعى

(ان اهم عامل له اثر فى حال الامة هو : حالتها الاقتصادية •• وهى لا تتغير بارادة شخص او مائة شخص ، أو اصدار قانون أو مائة قانون •• بل بتغيير الاسباب التى أوجدتها ••

ولقد نظم الاسلام توزيع الثروة ، واعلن اشتراك الفقراء فى ملكية أموال الاغنياء ، فحل المشكلة الاجتماعية بنوع فريد من الجماعية ، واشتراكية سامية سبقت اكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من الف عام •

ان النوع الانسانى ، فى كل مكان ، هو نفسه ، بأخطائه ومواطن ضعفه ، وايضا بعظمته وزهوه •• والحركة المستمرة الى جهة الترقى هى قانون الحياة الانسانية •• وان يقف ماضينا ولا حاضرنا حائلا بيننا وبين التقدم حسب هذا القانون الذى يسود الكون كله ••)

قاسم امين

من المعالم الهامة والايجابية فى فكر قاسم أمين وآثاره ان روح الفنان والأديب التى ملـكت عليه كيانه ، وحددت رؤيته لـكثير من القضـــايا والأشياء لم تطغ عنده على قوانين المنهج الاجتماعى الذى التزمه الى حد كبير فى درس وعلاج قضايا الاصلاح التى عرض لها .. بل اننا نستطيع أن نقول : انه كان من أبرز كتابنا ومصلحينا الذين وعوا بدور المنهج الاجتماعى فى البحث وأهميته في قيادة الباحث والمفكر الى أسلم النتائج واصـدق المقولات .

فهو يرفض مسلك أولئك الباحثين والمصلحين الذين يكتفون من البضاعة بما هو نظرى ومنمق وبراق ، بصرف النظر عن الواقع الذى يطبقون اصلاحاتهم فيه .. وينبه الى عقم ذلك المذهب السهل الميسور لكل من يحسن التخطيط على الأوراق ، ثم يدعو الى ان يكون الفـكر وخطط الاصلاح مدروسة في ضوء امكانات الواقع الذى نرجو له التغيير والتطوير .. يقول :

« نحن نفهم ان رجلا يعيش فى عالم الخيال ، يكتب فى مكتبته على ورقة : ان ليس على النساء الا أن يقرن في بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال ! .

نحن نفهم ذلك ، لأن الورق يتحمل كل شيء ! .

وانما يجد الصعوبة رجل اعتاد أن يحل النظريات ويختبرها بقياسها الى الواقع ، فانه اذا أراد مثلا أن يحصل لنفسه رأيا في : ما هى حقوق النساء التى نحن بصددها ؟ يجب عليه :

أولا : أن يسوق نظره الى الوقائع التى تمر أمامه ، أعنى ان يطبق نظريته على الوقائع ويتصورها في ذهنه منفذة معمولا بها فى مدينة ثم في اقليم ... ذلك عمل ليس بالسهل ، لأنه يحتاج الى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة .

فاذا توفر له ذلك كله لم يتيسر له أن يحكم فى المسألة حكما قاطعا ، لأنه يعلم ان رأيه قائم على مقدمات ظنية ، فلا تكون نتائجها الا تقريبية ، لذلك تراه دائما على طريق البحث ، لا يركن الى ما وصل اليه جهده الا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت ، ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل » (٩) .

فهو فى هذا النص الهام يحدد متطلبات المنهج الاجتماعى فى البحث والدراسة ..

١ ــ فلابد من دراسة الواقع ، قبل التخطيط .

٢ ــ ولابد من أن يكون الواقع ماثلا فى الذهن ونحن نضع التخطيط ، ماثلا بمعطياته القائمة ، وماثلا متخيلا فى حال تطبيق التخطيط عليه وتنفيذه فيه .

٣ ــ ولابد وأن تكون الدراسة والتصور شاملة ومحيطا بالواقع ككل ، وبدءا من الجزء وانتهاء بالكل .

٤ ــ ولابد من اختبار مدى صدق المقدمات ، لأنها

---

(٩) « الاعمال الكاملة لقاسم أمين » ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

ظنية وفروض لا تثمر المطلق والنهسائى ، بل النسبى والتقريبى .

٥ ــ ولذلك كله فلابد من ان يكون البحث عمــــلا مستمرا ، كي نضع فى اعتبارنا المعطيات الجديدة التى تثمرها دراسة الواقع بعد التطبيق ، وهى المعطيات التى تسهم فى اختبار صدق المقدمات ، وتحدث التعديلات فى النتائج التى يصل اليهــا الباحثون .. فنسبية المعرفة هنا تتطلب من الباحث أن « لا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل ! » .

وقاسم امين لم يحدد هــذا المنهج لأنه نقله عن الفــكر الأوروبى الذى درسه واستفاد منه .. لم يقف عند حدود الفهم والنقل ، بل لقد طبق هذا المنهج فى بحثه لــكل القضايا الاصلاحية التى عرض لها .

فهــو عنــدما قرأ هجوم « دوق داركور » على مصر والمصريين ، انفعل غضبا حتى أصابته الحمى ! ولم يجد علاجا لمرضه الا أن يرد هجوم الدوق .. ولــكنه خلع انفعالاته ، بل وجاهد للحــــد من تأثير روابطه القومية والوطنية على فكره وتقييمه لواقع مصر قدر الامكان ــ وان كان لم ينجح .. وما كان له ولا لغيره أن ينجح فى طلب ما هو مستحيل ! لكنه حاول وبلغ قدرا من النجاح حققته محاولته الواعيــة هــذه .. وعبر عن منهجه الذى اهتم بدراسة الواقع ، رغم الانفعال وحساسيات الموضوع ، فقال : « لقد أطلت التأمل فى أبناء وطنى ، بل لقد بذلت جهدا أكبر مما بذله الأجنبى فى دراستهم والتعرف عليهم ، واعتقد اننى نجحت فى أن اكتشف أعماق وجدانهم » (١٠) .

---

(١٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٤٢ .

ووعى قاسم أمين بضرورة دراسة الواقع وتحسكيم معطياته في التخطيط والتنظير هو الذى جعله يفرق بين الأبحاث الجادة التي تستحق الاحترام وبين الانطباعات التي يكتبها عن مصر اولئك « السياح » العابرون للسبيل ، والباحثون ــ الى جانب المتعــــة ــ عن القصص الغريب والنبأ العجيب ، بصرف النظر عن الحقيقة والواقع في المجتمع الذى عنه يكتبون.. فيصف هذا اللون من التأليف بقوله : « انني أعرف ، بخبرتي ، ذلك المنهج الذى يتبعه الأوروبيون في تأليف كتبهم . فهم يعتمدون على ما يقدمه لهم التراجمة من مواد ، وكلما كانت هذه المواد رهيبة شديدة الغرابة ، كلما غلا ثمنها ، دون أن ننسى ما تقدمه هذه المواد من ضمان لنجاح الـكتاب ! » (١١) .

وهو في نقــده لـكتاب « دوق داركور » عن مصر والمصريين يصنف هذا الهجوم في هذا اللون من الوان التأليف ، فيقول : « انني أفهم تمام الفهم دوق داركور . لقد أمضى الشتاء في رحلة لم تنقصها المتعة ! ، وطالع عدداً من قصص كتاب الرحلات ، مهتما أكثر بمن أساءوا في كتاباتهم الى الاسلام ــ الذى يكرهه من أعماق قلبه ــ ورأى من شرفة فندق « نيو أوتيل » ، وعبر نافذة السيارة التي كان يتجول بها ، مجموعات من السكان الفقراء ذوى المظهر البسيط ، وبهذه الطريقة ألف كتابه ؟! » (١٢) .

فهذا المنهج الذى يهمــل دراسة الواقــع هــو منهج مرفوض ، ونتائجه مرفوضة ، من قاسم أمين .

وفي الأفكار الاصلاحية التي تمنى قاسم أمين تطبيقها

---

(١١) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٤ .
(١٢) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٥ .

في عالم الأدب العربى تطالع كذلك ايمـانه بهذا المنهج الاجتماعى ، مطبقا على هذا الحقل .. فهو يدعو الى العمل على اعادة المكانة المفقودة الى هذا الأدب .. مكانته القـديمة التى كانت له عصر ازدهاره وازدهار حضارة أهله ، وذلك بواسطة اصلاحين أساسيين هما :

١ ـ أن يصبح هـذا الأدب انعـكاسا للتغـيرات التى يشهدها الواقع المعاصر .

٢ ـ وان يطوع هذا الأدب لما جد فى المجتمعات الجديدة من عادات تعبيرية لم يعرفها الأسلاف ، لابد وأن تفرض أساليب جديدة للمعالجات .

وهو يعبر عن أفكاره تلك فيقول : « ان الأمر فى حاجة الى عبقرى يستطيع بنشـاطه ومواهبه أن يعيد للأدب مكانته التى كانت له قديما فى المجتمعات الاسـلامية ، فيجعله يعكس هذه التغيرات التى ينبض بهـا وضعنا الحالى ، ويطوعه لعادات جديدة » (١٣) .

بل ان اهتمام قاسم أمين ـ المنهجى ـ بالواقع لا يقف عند هذه الحدود ، فهو يدعو ـ مثلا فى ميدان التربية ـ لأن نتخطى حدود الفهم النظرى للواقع ، ونمارس القيم ممارسة عملية .. يدعو الى معرفة تـكون ثمرة للخبرة والممارسة ، ولا يكتفى أصحابها بالتحصيل والاستيعاب .. فيتحدث عن هذه القضية ، من خلال نقده للواقع السائد فى ميدان التربية عند المصريين فيقول :

« ومن الاسف أن المصرى لا يزال يظن أن تربية الطفل عبارة عن وضعه فى المدرسة ، وانه متى علم ولده ما كان يجهله من العلوم فقد أحسن تربيته وقام بما يجب عليه ،

---

(١٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٣٠ .

مع أن التعليم هو فى الحقيقة اقل فروع التربية شأنا وفائدة .

نعم .. انه قد يكون من النافع ان الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة ، والفلسفة اذا شئت . ولو انى أعتقد ان التعليم النظرى لا يفيد الغلام فائدة محسوسة ، خصوصا اذا كان فى السن الذى يتلقى فيه العلوم العالية .

ولكن يجب على الآباء أن يعلموا ان التعليم وحده لا يفيد شيئا اذا لم يكن مصحوبا بتربية قوية ... وذلك بتعويد الطفل لا على أن يفهم أن هذا الطيب طيبا وذاك الخبيث خبيثا ، بل على أن يعمل الطيب ما قدر ويجتنب الخبيث ما استطاع لأن ادراك الحسن حسنا والقبيح قبيحا أمر سهل .. فالتمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشىء المهم فى فن التربية ، ولكن كله ينحصر فى اكتشاف واظهار وتنمية جميع الملكات الطيبة المخلوقة فينا ، أو غرسها فى نفوسنا ، وتقويتها واحيائها حتى يمسك فى النفس بجذورها فلا تستطيع قوة قلعها بعد ذلك أبدا .. والتربية بهذا المعنى لا يمكن أن تكتسب فى المدارس والمكاتب والقراءة والحفظ ، بل تجب ممارستها ! » (١٤) .

***

ولو أن قسمات المنهج الاجتماعى لدى قاسم أمين وقفت عند هذه الملامح والحدود لكان ذلك كافيا فى انتزاع الاعجاب به والاكبار له ، خصوصا اذا نحن راعينا عصره وظروف مجتمعه ، ولكنه لم يقف بقسمات هذا المنهج عند تلك الحدود ، وذلك لسبب بسيط وعميق ،

(١٤) المصدر السابق ٠ ج ١ ص ٢١٠ ، ٢١١ .

هو أن ذلك المنهج الاجتماعي ، الذي تحدثنا عنه ، والذي آمن به قاسم امين وطبقه في دراسته لقضايا الاصلاح التي عرض لها .. ان هذا المنهج كان ثمرة لايمانه العلمي بأن الكون بأسره انما يخضع لنظام صارم وتحكمه قوانين لا تختلف ثمراتها .. فهناك وحدة في قوانين الكون ونظمه .. وهناك وحدة في قوانين تطور الانسان عبر كل العصور وفي كل البيئات وهناك وحدة في قوانين تطور المجتمعات .

وهذه النظرة العلمية تدخل المجتمعات الشرقية في دائرة التطور البشري العام ، وترفض موقف أولئك الذين يريدون استثناء هذه المجتمعات من التأثر بنهضات الآخرين بحجة الزعم بأنها ذات خصوصية تستعصي على قبول القوانين العامة والوحدة لتطور الكون والمجتمع والانسان .

وقاسم أمين لا يطرح هذه القضية كأمر فكري ونظري مجرد ، وانما ينبه الى أن وعيها هو امر ضروري لنا ونحن نعالج كتابة التاريخ وتفسير أحداثه ، وأيضا ونحن نعالج قضايا الانسان المعاصر واصلاح عيوب مجتمعاته ، فكما تحكم القوانين العلمية الظواهر الطبيعية كذلك فان للظواهر التاريخية والاجتماعية والانسانية قوانينها التي تحكمها ، والتي لابد من وعيها ،لمن يتصدى لهذه الظواهر بالدراسة والعلاج . يقول ، بصدد الحديث عن مهمة المؤرخ والمصلح .. ذلك « ان المؤرخ يشرح اطوار أمة في زمن من عمرها ، بتعريف أخلاقها وعوائدها ونظاماتها وتربيتها ووسائل معيشتها ، وحالتيها الاقتصادية والسياسية ، داخلا وخارجا ، وما هي عليه من درجة الأفكار والعلوم والآداب والفنون ، ويبين من خلال ذلك

ما طرأ عليها من الحوادث المهمة .. ولا يعتنى الا قليلا بسرد الحوادث ـ كما يفعله مؤرخونا ـ وبهذه الطريقة صار التاريخ من أهم العلوم التى موضوعها الانسان الاجتماعى » .

هكذا يحدد المنهج الاجتماعى فى كتابة التاريخ .. فليست الحوادث والوقائع هى الأسباب ، بل هى المسببات ، والقاعدة التى تثمر ما نسميه « تاريخا » هى الأحوال الاقتصادية والسياسية والفكرية والعادات والتقاليد ووسائل المعيشة .. الخ .. الخ .. أما كتابة التاريخ كركام من الأحداث ـ على عادة مؤرخينا ، كما يقول ـ فهو منهج خاطىء يخرج التاريخ عن مكانه الطبيعى كواحد « من أهم العلوم التى موضوعها الانسان الاجتماعى ! » .

وكما يجب ذلك على المؤرخ ، يجب ايضا على الساسة والمصلحين وكل المشتغلين بالمسائل العامة .. « فكما يفعل المؤرخ فى الماضى يفعل الكتاب المشتغلون بالأحوال العمومية فى الحال ، فيدرسون زمانهم درسا تاما ، ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم ، حتى يتبين لهم ما هم عليه بكيفية لا تقبل الشك .

ان هذه الأمور انما هى العلل التى أنتجت تلك الحالة ، وان تغييرها لا يكون بالصدفة ، وانما هو بتغيير يحدث فى تلك العوامل المؤثرة ، اذ السبب والمسبب دائما متلازمان ، عقلا وعادة ، متى وجد احدهما وجد الآخر حتما . وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى فى العالم كله ، فليس فى الكون شىء وجد بلا موجد وسبب ، واضح أو خفى ، معروف الآن أو يكشفه المستقبل » .

وبعد هذا التأكد على أن تطور المجتمعات وتغيرها أنما تحكمه قوانين تتطلب تغيير الأسباب والقواعد المتحكمة اذا شئنا تغيير المسببات والأبنية العلوية والتابعة ـ ينبه قاسم أمين الى ان خفاء هذا القانون فى الظواهر الانسانية لا يعنى تخلفه فيها ، لأنه عام ، حتى وان تميزت هذه الظواهر بأسباب لا تجعله واضحا وجليا كما هو حاله فى ظواهر الطبيعة .

« ان هذا القانون الالهى وان كان لا يظهر بوضوح تام فى علوم الهيئة الاجتماعية ، كما هو ظاهر فى العلوم الطبيعية :

أولا : لأن معارفنا المختصة بالمجتمع الانسانى هى ، فى الحقيقة ، فى أول نشأتها ، وعلى حداثة عهدها .

وثانيا : لأن الحادثة الاجتماعية لا تتكون من سبب واحد ، بل يشترك فى مقدماتها عدة أسباب متنوعة .

وثالثا : لأنها تظهر دائما انها تحت ارادتنا ، وان لنا سلطة فى ايجادها وتعديلها .

ولكن يكون من الخطأ الجسيم ان نعتقد ان الجسم الاجتماعى ليس خاضعا لذلك القانون العام كغيره » .

ثم يستطرد ليؤكد على أن هذه الحقيقة العلمية قد قررها الله فى قرآنه ، فيذكر أن آية (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (١٥) هى أساس لذلك القانون ، وبها يظهر للقارىء كيف توافقت شريعتنا مع العلم فى هذه القضية ، كمـــا تتفق معه دائما لو كان القائمون بشئونها رجال أكفاء يخدمونها بجد ويفهمونها باصابة وادراك ! » (١٦) .

---

(١٥) الرعد : ١١ .

(١٦) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٠٩ .

ولقد كان طبيعيا أن يؤمن قاسم أمين بالتطور والتقدم كقانون علمى ، ليس فى نطاق الظواهر الطبيعية فقط كما اشتهر عند تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) فى ذلك العصر ، بل وفى الظواهر الخاصة بالحياة الانسانية ، ذلك « ان هذا التغير والتحول ، بل الحركة المستمرة الى جهة الترقى ، هى قانون الحياة الانسانية ، التى خلقها الله ووهبها أعظم وسائل الارتقاء . وبهذا القـــانون خرج الانسان من المعيشة البهيمية ، التى لا يزال عليها اخواننا المتوحشون من سكان افريقيـــا وأمريكا ، ممن وصفهم العلماء بأنهم قردة متمدنة عندما شاهدوا ان المسافة بينهم وبين الحيوانات البهم اقل من المسافة التى بينهم وبين اناسى أمة متمدنة ! » (١٧) .

ولقد استفاد قاسم أمين من ايمانه بقـانون التطور ، ووحدته وفاعليته الأزلية الأبدية ، فاستخدم حقـائقه أسلحة فى الصراع ضد فكرية الغرب الاستعمارى الذى حاول ، فى سبيل السيطرة علينا والاستغلال لنا ، ان يوهمنا ان قانون التطـــور والتقدم والارتقـــاء ، فى المجتمعات ، انما مجال صلاحياته وصلاحه هو المجتمعات الغربية المتقدمة ، أما نحن الشرقيين فاننا ومجتمعاتنا خارجون عن ميدان تطبيق هذا القانون ؟! ..

رد قاسم أمين هذه الفرية عندما تحدث عن « ان تاريخ تأسيس الدول فى العالم موضوع تأملات متصلة ، وهو يؤكد حقا أن النوع الانسانى ، فى كل مكان ، هو نفسـه ، بأخطائه ومواطن ضعفه وبؤسه ، وأيضا بعظمته وزهوه ، والقانون الأبدى الذى يحول المـادة يحول أيضـا البشر

(١٧) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٠٩ .

والانظمة ، ولا تستطيع قوة مقـاومة هذا القانون الذى لا مهرب منه ، والذى يحكم حركة التقـدم البشرى . والانسانية تعبر عن نفسها فى كل مكان بنفس الطريقة ، وتتبع نفس المسيرة .

وقد بدأت الشعوب حياتها بالحرية ، وستنتهى الى الحرية . غير انها فيما بين هاتين الفترتين مقضى عليها ان تعانى محنة الاســـتبداد ، الذى يبدو أنه ضرورى لاحتبارها . ما أسعد الدول التى يكتب لها ، بعد هذه المحنة ، البقاء ! » (١٨) .

وقاسم أمين لم يكن بذلك يفند ترهات مفكرى الغرب الاستعماريين وحدهم ، بل وينقض حجج القوى الوطنية المحلية التى تعادى التطور على وهم ان بالامكان ايقاف قانونه عن انعمل ، والعودة الى الماضى او الحفاظ على بقايا آثاره التى تشد المجتمعات الشرقية الى الوراء ..

وهو فى سبيل الرد على هؤلاء وهؤلاء يمضى متسـائلا ليقول : « .. اننى ــ بكل حسن نية ــ لا أرى لماذا يقف ماضينا ــ كما أرى ، أو حاضرنا ، كما يراه دوق داركور ــ مهما كان سيئا ، حائلا بيننا وبين التقدم حسب قانون التطور نحو الـكمال ، وهو القانون الذى يسود حركة الـكون كله ؟! » (١٩) .

وكما أثمر ايمان قاسم أمين بهذا المنهج الاجتماعى تلك الثمرة التى جعلته يرى الأسباب فى علاقاتها بالمسببات ، والتى جعلته يشير الى السبل العلمية المثلى فى دراسة ظواهر التاريخ والمجتمع والانسان ، فهى ايضا قد اثمرت تحذيره من الظن بأن التغييرات التى تحـدث فى الأبنية

(١٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٧ .
(١٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٦ .

العلوية للظواهر الاجتماعية قادرة على احداث تطـــور حقيقى فى هذه الظواهر .. فتغيير الواقع الاجتماعى هو الذى يحدث التغيير الحقيقى ، وليس تغيير القوانين والقيادات هو الفاعل الحقيقى فى تلك المجتمعات .. وعن هذه الحقيقة الهامة يقول : « ان حالة الأمة ، فى السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر ، لبست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة ، بل انها نتيجة لازمة لا تتغير الا اذا تغير ما بنفس تلك الأمة .. والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول ، فهى لا تتغير أبداً الا بحال آخر ، بمعنى ان أرادة شخص او مائة شخص أو اصدار قانون أو مائة قانون ، كل ذلك لا يؤثر فيها بشىء محسوس ! » (٢٠) .

تلك كانت درجة ايمـان قاسم أمين بأهمية القـاعدة المـادية للظاهرة الاجتماعية ، وكيف ان تغييرها هوالسبيل الحقيقى لاحداث التغييرات الحقيقية والتطـورات ذات القيمة التى يسعى الانسان لانجازها كى يتطور بمجتمعه وواقعه الى الأمام .

***

بل لقد خطا قاسم أمين فى هذا السبيل ، الى الأمام ، خطوات أكثر تحديداً وأشد عمقا وأنضج فى باب الايمان بالمنهج الاجتماعى فى البحث والدرس والاصـــلاح .. فوجدناه يركز على أهمية العامل الاقتصادى والأسباب الاقتصادية ، ويبرز دورها المتميز فى تحـديد الصورة العامة للظاهرة ، ويؤكد على فعـــاليتها فى التطور اذا ما شملها التغيير والتطوير .

فهو عندما فكر فى كتابة مقالاته التى نشرها فى «المؤيد»

---

(٢٠) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩٠ .

حدد منهجه ، ونبه على أن عينه ستكون أكثر تركيزا على العوامل المؤثرة فى المجتمع ، بهدف القـــاء الضوء على السبل الحقيقية للتغيير المنشود .. وبصدد حديثه عن منهجه هذا كتب يقول : « .. شرعت فى هذا العمل .. باحثا عن حالتنا الراهنة ، لا من جهة السياسة ، فانى لست مشتغلا بها الا من حيث كونى مصريا أحب الوقوف على الحوادث التى تجرى فى وطنى ـ وللسياسة الآن قائمون ، والحمد لله ، بخدمتها واستخدامها أكثر مما يحتاج اليه الحال ! ، بل من الجهات الأخرى ، كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين .. » (٢١) .

فهو هنا يضع عامل الاقتصاد و « المعيشة الاقتصادية » قبل عوامل : التربية ، والعوائد ، والدين .

وفى موطن آخر يزيد هــذا الموقف حسما ووضوحا عندما يقول : « ان أهم عامل له أثر فى حال الأمة هى حالتهــا الاقتصـــادية ... ومن الأسف هــذه الحـــال الاقتصادية ليس فى امكان أحد من الناس ان يحكم عليها ويديرها كيف يشاء » (٢٢) .

وهو هنا يشير ـ بعد تقريره ان الحالة الاقتصادية هى أهم العوامل تأثيرا فى حالة الأمة والمجتمع ـ يشير الى ان لهذا العامل قوانينه العلمية التى لابد من الوعى بها ، لأن تصور تغييرها بالأهواء أو التصرفات الذاتية والعلوية أمر خارج عن الامكان .

فاذا انتقل للحديث عن المرأة وجــدناه ينبه الى دور العامل الاقتصادى فى أوضاعها الراهنة ، ان سلبا وان ايجابا .

(٢١) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩١ .
(٢٢) المصدر السابق . جـ ٢ ص ١٦٩ .

فللعامل الاقتصـــادى الدور الأغلب فى انحراف المرأة الخلقى وتفريطها فى عفتها وسلوكها المسلك المشين ، ولذلك فانه يمكن أن يقال : « اننا لو بحثنا عن السبب الذى قد يحمل تلك المرأة المسكينة التى تبذل نفسها فى ظلام الليل لأول طالب ــ وما أكبر هذه المذلة على المرأة ــ لوجدناه فى الأغلب شدة الحاجة الى زهيد من الذهب والفضة . وقلما كان الباعث على ذلك الميل الى تحصيل اللذة .. » (٢٣) .

كما يبصر العلاقة بين الوضع الاقتصـــادى لطبقة من الطبقات وموقف هذه الطبقة من ظاهرة تعدد الزوجات مثلا .. فالتعدد لا ينتشر فى الأوساط الريفية التى لا ينتج أهلها ما يسد رمقهم ، كما ينتشر فى أوساط الأثرياء الذين ورثوا الثروة والجهـــل والتخلف والبحث عن اللذات .. يقول قاسم أمين :

« وأستطيع ان أؤكد ان حالات تعـدد الزوجات نادرة فى مصر . ونتحدث عن الريف فى البداية ، فالفـــلاح متمسك بالزوجة الواحدة ، بشكل جذرى ، وسبب هذا انه يكسب ما يكاد ينقذه من الموت جوعا . أما فى المدن فقد بقى بعض رجال النظام القديم المتزوجين بأكثر من واحدة ! .. » (٢٤) .

فللتعدد ، وجودا وعدما ، قلة وكثرة ، عـلاقة وثيقة بالوضع الاقتصادى لـكل طبقة من الطبقات أو فئة من الفئات .

***

هكذا يتكشف لنا قاسم أمين عن مفـكر ومصلح امتاز

(٢٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢١ .
(٢٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٨٨ .

بالايمان والاستخدام لذلك المنهج الاجتماعى الذى أعانه على دراسة المعضلات التى عرض لها بالدرس والاصلاح .

فهو قد أكد على ضرورة الربط بين الفروض والأفكار والنظريات وبين الواقع والممارسة والتطبيق ... وذهب فى ذلك مذاهب تكشف عن عمق وأصالة علمية كبيرة .

وهو قد وعى القوانين التى تحكم الظواهر ، طبيعية كانت أو اجتماعية أو انسانية .. واستخدم وعيه فى تسديد خطاه كباحث ومصلح ، وفى رد سهام الاعداء الذين كانوا يناصبون وطنه وأمته العداء .

وهو ، أخيرا ، قد أدرك أهمية القاعدة المادية للمجتمع وحالته الاقتصادية على وجه الخصوص ، ودور هذه الحالة فى أية عملية للتغيير أو التطوير يراد بها الانتقال بهذا المجتمع خطوة أو خطوات الى الأمام .

المجتمع الذى يشربه

(ان التربية هى : راس مال لا يفنى ! ..

وحياة كل أمة مرتبطة بماليتها .. والتجــــارة هى علم الثروة الحقيقى ... وليس الغرض أن يجمع الانسان المال حبا فى المال ، بل المراد أن يكون لديه طموح شريف الى العلاء .

والاستبداد أصل كل فساد فى الاخلاق ... والحرية الحقيقية تحتمل ابــــداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر ...

فكم من الزمن يمر علينا قبل ان نبلغ هذه الدرجة من الحــرية ؟! ..)

قاسم أمين

كان قاسم امين واحـدا من المصلحين البـارزين فى مدرسة الاستنارة واليقظة والتنوير فى مصر والشرق العربى والاسلامى ، تلك المدرسة التى تكونت اول ما تكونت بمصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ورائدها هو رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) .

وكان الموقف الاجتماعى لهـذه المدرسـة يستهدف التطور بالمجتمع من مرحلة الاقطاع ، والانتقال به الى المرحلة البورجوازية ، بكل ما تعنى هذه المرحلة من استنارة ومواءمة بين تدين الشرق وعلمـانية الغرب وعقلانيته - مستفيدين فى ذلك بما للاسلام من مواقف ومبادىء تنتصر للعقل وترفض الكهنوت والسلطة الدينية - وبكل ما تعنى هذه المرحلة البورجوازية كذلك من اعلاء لشأن « العمل » ونقد لقيم التبطل التى تميزت بها مجتمعات الاقطاع وكبـار الملاك ، والدعوة الى اشاعة التنافس والطموح ، وتنبيه الناس الى أهمية التجارة والصناعة وتكوين الشركات ، وخوض غمـار المنافسة والمخاطرة فى هذه الميادين ضد أوروبا التى كانت تزحف لنهب ثروات المجتمعات الشرقية ، سواء فى صورة شركات وجاليات ومغامرين ، أو فى ظل جيوش وسلطات احتلال

تحمى وتقنن ذلك النهب والاستنزاف .. (٢٥) .

ومن هنا فاننا نجد لدى مصلحى مدرسة التنوير هذه ، عندما يكون حديثهم عن الموقف الاجتماعى ، قاسما مشتركا يتمثل فى أمرين محددين :

أولهما : نقد بقايا المجتمع الاقطاعى القائم ، وتسفيه قيمه ، والازراء على الاعراف التى سادت مجتمعات كبار الملاك .. وكان كثير منهم بمصر يومئذ من المتمصرين والشراكسة والأتراك .

وثانيهما : الدعوة الى احلال قيم المجتمع البورجوازى – وكانت هى الأكثر تقدما بالنسبة لمجتمع الاقطاع وكبار الملاك – الدعوة الى احلالها كبديل لقيم المجتمع القديم .

ونحن اذا نظرنا فى الفكر الاجتماعى لقاسم أمين ، وبحثنا عن نوعية المجتمع الذى بشر به مواطنيه ، وجدناه يدعو الى هذين الأمرين المحددين بوضوح وجلاء .

فهو يوجه نقده الى المجتمع القائم ، ويعيب عليه ضعف طبقة البورجوازية ، التجارية والصناعية ، فيه .. ويسفه من الهالات التى يحيط بها هذا المجتمع فئة الموظفين ، لأنهم بلا سند اقتصادى يضمن لهم لقمة العيش اذا ما تأخرت عنهم المرتبات ! ومن ثم فلا دور لهم فى الانتاج والتطور الاقتصادى للمجتمع الذى يخدمون حكومته .. ويوجه سهامه الى الوضع المزرى لطبقة كبار الملاك الذين أغرقوا أنفسهم فى التبطل وكبلوا طاقاتهم بالسفه والتبذير بعد أن أغرقوا ممتلكاتهم الزراعية فى الديون .

يوجه قاسم أمين انتقاداته هذه فيقول :

(٢٥) انظر الفصل الذى كتبناه عن الفكر الاجتماعى لرفاعة الطهطاوى، فى تقديمنا لاعماله الكاملة ج ١ ص ١٧٥ – ٢٠٠ .

« ان مصر بلدة فقيرة جدا ، نصف أهلهـــــا ، وهم الفلاحون ، يعيشون بانشيء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعا ، والنصف الآخر ينقسم الى قسمين :

الأول : يشمل التجار والصناع .. وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه : انه مالى ملى ! .

والآخر : يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات ــ وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار ، نوعا ما ، فى معيشتهم ، ولكن أغلبهم أن حيل بينهم وبين مرتبهم شهرا واحدا وقعوا فى العسرة والضنك الشديد ! .

أما أرباب الأطيـــان ، من الذوات والعمد والمشائخ والأعيان فى البلاد ، فحالهم كحال « رابيل » ، المؤلف الفرنساوى المشهور ، اذ قال فى وصيته : « انى لا أملك شيئا ، وعلى ديون كثـــيرة ، وأوصى ببقية ما أملك للفقراء » !! والبلد التى يكون أهلها فقراء ، مثلنــــا ، لا يمكنها ، ما دام فقرها ، ان تؤمل خيرا فى المستقبل ، لأن حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها ، اذ بالمال يتم كل شيء ، وبغير المال لا يتم شيء مطلقا ! » . (٢٦) .

وفى موطن آخر يسلط هجـومه على قيم الـكسل والتبطل والزهو والتواكل التى تسود المجتمع القديم ، ويعلل انتشار هذه القيم المنـــاهضة للطموح والمنافسة بسيادة الاستبداد السياسى الذى قهر ملـكات النـاس وكره اليهم استثمار طاقاتهم عندما أيقنوا ان المستبدين هم الذين يجنون ثمار الطموح والاجتهـــاد ، وساعد الاستبداد فى ذلك سوء التربية وانتشار الفكر الضـار والمعوق لتطور المجتمعات .

يتحدث قاسم أمين فى ذلك عنـدما يعرض لمـكان

---

(٢٦) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

الانسان المصرى من « العمل » و « الطموح » فيقول :
« ان المصرى طماع - (طموح) - كغيره ، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره ، ولـكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه . فهو اذن يحب أن تمطره السماء ذهبا وان تنبته الأرض فضة ، يحب أن يكون أغنى الناس ، على شرط أن لا يتعب جسمه ولا يجهد فكره ! .. والسبب فى سقوطه هذا أمران :

الأول : سوء معاملة الحكومات السابقة له ، فانهـا بغدرها وظلمها أضاعت الأمانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية ، ففقد المصريون بذلك ملـكة الاقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل .

والثانى : سـوء تربيته ، فان عـدم تشغيل الجسم وتحريك الأعضاء والجلوس ساعات ، بل واياما ، على المقاعد والمراتب والمصاطب ، وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ ، وترك النظر فى الأشياء ، مع شدة التمسك بالأقوال والأمثال المثبطة للهمم المميتة للعزائم ، وتـكرار سماع القصص والأحاديث التى وضعت فى الأصل لتسلية الفقير وازالة الأحزان عن الضعفاء قليلى الحول والحيلة .. ولكن غشيتنا جهـالتنا ، والفيناها قـد اتفقت مع كسلنا وخمولنـــا فنشرناها وروجناها ، وحشيناها ووشيناها ، حتى تشربت بها أرواحنا وعقولنا ! » (٢٧) .

***

وبدلا من هذه القيم التى كانت لها السيادة والانتشار فى ذلك المجتمع الاقطاعى ، بشر قاسم ، كغيره من مصلحى مدرسة التنوير ، بقيم المجتمع الجديد .. فهاجم الزهد والقناعة والرضا بالقليل ، ودعا الى الطموح وطلب المزيد

(٢٧) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

والمزيد مما هو مشروع .. وقال وكتب مؤكدا ان « من البديهى ان الانسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة الكفاف ، لأنه لو كان هذا داعى الفطرة البشرية لما كان التنافس فى المزيد . فعلى الانسان أن يسعى ، والحالة هذه ، لتحسين حالته المادية والأدبية ، فان كان يكسب فى اليوم قرشين ، فعليه أن يجتهد فى توصيلها الى خمسة ، ثم الى عشرة ، وهكذا ...

وليس الغرض .. من تحسين الحال ، على هذه الطريقة ، أن يجمع الانسان المال حبا فى المال ، بل المراد أن يكون عند كل واحد طموح شريف الى العلاء ، ولا يكون له ذلك الا اذا سعى فى استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وأن يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجاته المادية فى ترقية عقله وتربية أولاده بالرياضة والتعليم والسياحة ، وأن يأتى من الأفعال النافعة لهيئة المجتمع ما يغبط غيره على فعله .. » (٢٨) .

وفى مواجهة القيم التى تمجد التبطل والكسل و « الراحة » ، يبشر قاسم أمين « بالعمل » المنتج ، وذلك من خلال نقده لتكالب الناس على « العمل » كموظفين فى الجهاز الحكومى ، مع انه « لو تذكر الناس أن الشرف والمجد لا يصادفان فى طائفة الموظفين الا بنسبة قليلة جدا ، وان كل انسان قادر على أن يرقى نفسه بنفسه ، وان يعلو على أكبر ملك فى الدنيا بفضيلته وعلمه . لما رأى ورأوا فى انفصاله من خدمة الحكومة الا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيئا ! .. »(٢٩).

---

(٢٨) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٢٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

والتعليم .. يعلم قاسم أمين قومه بانه أكثر من معارف مجردة تطلب لذاتها . فان له دورا في تنميه الحياه .. بل لقد تحدث عنه على انه « استثمار » رابح بمعاييس « الاستثمارات » والارباح .. ومن هنـــا كان « كل ما يصرف في ســـبيل التعليم والتربية . كالدراسه ومطالعة الكتب والجـرائد والسياحه ، لازم .. انه لا يجوز مطلقـــا الاسنغناء عن صرف الأموال في هذا السبيل ، كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذى هو قوام الحياة .. لأن التربية هى راس مال لا يفنى . أما المـال فمـــا أقرب ضياعه ، وخصـــوصا فى يد الغبى الجاهل ! » (٣٠) .

***

وكما سبقت اشارتنا فلقد كانت قيم المجتمع الاقطاعى تعلى من قدر كبار المـلاك بالوراثة ، والاثرياء بالوراثة ، وترفع شأنهم الأدبى والاجتماعى فوق شأن التجـــار والبورجوازيه التجارية التى يعمل أهلها بايديهم وينمون ثرواتهم وثروة المجتمع .. ولذلك وجدنا قاسم أمين يسفه من فكر كبـــار المـلاك ويسخر من « شرفهم ونبلهم » المزعومين ، ويعلى من قدر هذه البورجوازية التجارية التى كانت فى دور النشأة والتكوين ؛ فيتحدث كيف « كان المصريون ، الى عهد غير بعيد ، ينظرون الى التجارة بعين الاحتقار ، ويحسبون انهـــا مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار ، والى الآن لا يزال هذا الزعم منبسطا على عقول بعض الامراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوى الموشاة بالذهب ، ووضعوا النشانات على صدورهم ، وعلقوا فى منـــاطقهم السيوف تجر على جوانبهم الى

(٣٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٠٦ .

الأرض ، تخيلوا انهم من انسانية أخرى أعلا من انسانية هؤلاء التجار الذين يشتغلون بأيديهم ... وهم يرون كل خدمة غير « أميريه » وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هى أشياء لا يليق الاشتغال بها . ولهذا كله لم يشتغل منا حتى الآن بالتجارة الا فئة قليلة ، برهنت على ارادة واقدام واصالة رأى تستحق عليها ثناء الامة المصرية بأسرها .

ولو قارن اى انسان ، لم يعمه الجهـل ، بين هؤلاء التجار الذين دخلوا ميدان الحياة ... وبين أولئك الذين منبع ثروتهم ، فى الأغلب ، العطايا والمنح التى كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج ، أو لسبب خدمة خصوصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأى اى فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحتقره الآخر ! » (٣١).

ولقد كان قاسم أمين يعى جيدا ان ضعف البورجوازية التجارية الوطنية يترك المجال فسيحا وسـهلا للنشاط التجارى الذى يقوم به الاجانب والنازحون الى بلادنا ، فأخذ ينبه قومه الى قيمة التجارة كحرفة ، بل وكعلم من أشرف العلوم ، لدى الدول الاوروبية المتقـدمة والاستعمارية ، ويستنفر أبناء وطنه لمزاحمة الأوروبيين فى هذا الميدان .. فأهاب « بالآباء أن يعدوا أبناءهم الى غاية الوصول الى السعادة ، وأن يفتحوا أمامهم أبواب الآمال ، لأنهـا أبواب الثروة الحقيقية ، وان يعطوهم الوسائل للحصول عليها ، وأول شىء يجب أن يلتفتوا اليه اليوم هو التجارة .

ان الأوروبيين يجمعون الأموال الهـائلة ... « لانهم فهموا أن التجارة هى علم الثروة ، وهى علم حقيقى

(٣١) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

لا يقل فى الفضـــل عن أشرف العــلوم ، ويدرس فى المدارس ، ويتمم بالاختبار والعمل (٣٢) .. وانت أيهــا المصرى البطال ، ابن البلاد ، وادرى بما فيها ، ولك فيها القريب والحبيب ، فلماذا لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون الى بلادنا ؟! » (٣٣) .

كما يلمس دور المصالح الاقتصادية ، والتجارية منها خاصة ، فى الصراع العـــــالمى بين الدول الاستعمارية المتنافســة ، ويورد نبوءة الساسة بقيام الحرب العالمية الأولى ، وذلك قبل حدوثها بما يقرب من العشرين عاما ؟! .. وذلك عندما يكتب فيقول :

« ان أمم اوروبــا قد وجهت التفاتها الى المســائل الاقتصادية واعتناءها بها كل الاعتناء ، فأنشأت نظارة ــ (وزارة) ــ للتجـــارة ، وللصناعة ، وللمستعمرات ، واكثرت من انشاء المدارس التجارية والصناعية ؛ وتهافتت على وسائل الاستعمار ، وصارت كل أمة تزاحم الأخرى فى هذا السبيل ... حتى أن رجال السياسة صاروا يعتبرون انه لابد من الحرب يوما بين انجلترا وألمانيا ، لأن المنافسة بين الأمتين فى جميع أنحاء الدنيا أوصلتهما الى درجة اعتقاد ان احداهما لا يمكن أن تستمر فى طريقها الا اذا سحقت الأخرى ! » .

ثم يستطرد ليقرع الأســماع بأن البـــلاد الضعيفة المستعمرة ، ومنها مصر ، هى موضوع التنافس والصراع المحتدم بين هذه القوى الاستعمارية ، وأن النهضة هى سبيل افلاتها من مصيرها الأليم ، فيقول : « اننا نحن المصريين لا شغل لنـــا الا التفرج على المتنافسين ...

(٣٢) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٠٠ .
(٣٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩٥ .

والحقيقة اننا نحن موضوع تنازعهن ، وسبب مشاكلهن ، نحن اللقمة الدسمة التي يريد كل منهما ــ (الانجليز والالمان) ــ ان يبتلعها في جوفه ! » (٣٤) .

ان قاسم أمين يدعو الى مجتمع يكثر فيه الأثرياء الذين يحصلون ثرواتهم بالعمل ليل نهار ، ويتمنى لمجتمعه ان يكون مثل تلك المجتمعات التي توصلت أممها « الى اقتناء الثروة ، وكثر فيها الأغنياء الماليون الذين أصبحوا يتعاملون بالملايين ، كما نحن نتعامل بالعشرات والمئات ! » .

ثم يضيف متحفظا على طرق جمع الثروة ، فينبه ان طريق العمل يجب أن يكون هو السبيل لتحصيلها ، قائلا : « ... ولكن الشيء المهم ، الذى ارجو ملاحظته ، هو ان كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هي نتيجة عمل صاحبها .. انه يشتغل ليكسب ، يشتغل دائما ، يشتغل في النهار ، ويفكر في شغله بالليل ! » (٣٥) .

فهو داعية للتطور الراسمالى ، ومناضل من أجل ازالة العوائق الاقطاعية من طريق هذا التطور ، ومبشر بقيم المجتمع البورجوازى .. ولقد كان هذا الطريق ، بالنسبة لمجتمعه وعصره ، من أكثر الطرق قدرة على تنمية المجتمع وتطويره وتقدمه في ذلك التاريخ .

***

واذا كانت هذه هي الدعوة التي بشر بها قاسم امين فيما يتعلق بالقاعدة المادية للمجتمع الذى نقده ، والذى بشر به ، فانه قد صنع ، في اطار البناء الفوقى للمجتمع ، ما يتسق مع هذه الدعوة كل الاتساق .. فهو قد هاجم الاستبداد ، الذى كان سمة للحكم الشرقى

(٣٤) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩٢ .
(٣٥) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

الفردى الاقطاعى .. ودعا الى الحرية كما عرفتهـــا المجتمعات البورجوازية الليبرالية فى اوروبا ، وطالب بالحياة النيابيه فى وقت مبـــكر جدا ، اذا ما قيس بالأصوات التى ارتفعت بهذا المطلب بعد هزيمة الشـوره العرابية واحتلال الانجليز للبلاد .

فهو يتحدث عن « ان الاستبداد أصل كل فساد فى الأخلاق » .. (٣٦) .

ويطالب بأن تكون الحرية فى الاعتقاد ، وفى التعبير عن المعتقدات مصونة ومكفولة ، بل ومقدسة ، مهما تكن الآراء والمعتقدات التى يعتنقها الناس ويعبرون عنها .. يقول : ذلك لأن الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر ... فى البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بانه لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن فى شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادىء التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية ، يقول ويكتب ما شاء فى ذلك ، ولا يفكر أحد ، ولو كان من ألد خصومه فى الرأى ، أن ينقص شيئا من احترامه لشخصه ، متى كان قوله صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح » .

ثم يتساءل : « كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟! » (٣٧) .

وهو ينبه الى أمر هام جدا عندما يربط بين احترام المجتمع للفضيلة ومقته للرذيلة وبين قيام رأى عام قوى فى هذا المجتمع ، اذ « لا يمكن أن تصير الفضيلة مطلوبة مرغوبا فيها ، والرذيلة ممقوتة مبغضة الى النفوس الا اذا أحس الناس بقوة حكم الرأى العام وسلامته ! » (٣٨) .

(٣٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٠ .
(٣٧) المصدر السابق . ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٣٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٦ .

فلا المواعظ والخطب ، ولا الوصايا والتحذيرات بفاعلة شيئا ذا قيمة فى اعلاء شأن الفضيلة وخفض منزلة الرذيلة كما يفعل ذلك قيام الرأى العام صاحب الحكم القوى والسليم ! .

ثم يتوج قاسم أمين فكره الديمقراطى بالدعوة الى الارتقاء من المجالس البلدية والمجلس التشريعى الاستشارى الذى أقامته سلطات الاحتلال الانجليزى بديلا عن المجلس النيابى الذى حلته بعد هزيمة الثورة العرابية .. يدعو قاسم أمين الى الارتقاء خطوات من هذا النظام الذى مرت عليه عشر سنوات ، الى نظام المجلس التشريعى البرلمانى غير الاستشارى .. فيكتب فى سنة ١٨٩٤ م قائلا : « لقد اكتسب اليوم المجلس التشريعى ثقة كبيرة لا يمكن نكرانها ، حتى ان قادتنا يستلهمونه أفكارهم . كما باتت كثرة من المصريين المعتدلين ، وأنا واحد منهم ، ترى أن هذه السنوات العشر تمثل تدريبا كافيا ، وأن مصر بعد ألفتها للتمثيل القومى قد أصبحت جديرة بأن يكون لها مجلس نواب لا يكون استشاريا فقط ، لقد نضجت مصر بما يتيح لها عمل هذا الاصلاح . غير اننا نود بالطبع نظاما تكون فيه الغلبة للمعرفة الواعية ، لا للكم العددى .. » (٣٩) .

***

هكذا فكر ، وكتب قاسم أمين .. وهكذا نلتقى فى آثاره الفكرية بما يؤكد انه كان ناقدا للمجتمع الاقطاعى ، مهاجما لقيمه .. مبشرا بقيم المجتمع البورجوازى ، وداعيا الى فتح الطريق أمام المجتمع المصرى كى يدخل الى رحابه ، بعد أن يخلف وراء ظهره مجتمع الاقطاع وكبار الملاك .

---

(٣٩) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

التطور الفكرى

(● ان ديننا قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لا تدخله امرأة واحدة ، وان يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد ، وذلك حمايه لهما من الضعف وقضاء على مصدر الشر ! » .

● ليس في الشريعة نص يوجب الحجاب ... وانما هي عادة أخذناها عن بعض الامم .. وان نساء العرب والقرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوربا ، اقل ميلا للفساد من ساكنات المدن المحجبات ... ان المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الافكار السيئة من المرأة المحجوبة ! » .

● انني لا أفهم ان يقيم الانسان دعوى لتحصيل الطلاق ، فتلاقى الارواح لا يمكن ان يكون مادة للتقاضى ! ..

● ان وضع الطلاق تحت سلطة القاضى ادعى الى تضييق دائرته ، وأدنى الى المحافظة على نظام الزواج ! ...)

قاسم امين

عندما أصدر قاسم أمين كتاب « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م أحدث ضجة كبرى فى المجتمع المصرى والمجتمعات الشرقية ، بل لعله قد أحدث أكبر وأهم معركة فكرية قامت فى الشرق من حول كتاب فى القـرن الذى ظهر فيه .

ولقد صدرت للرد عليه مجموعة كبيرة من الكتب ، فضلا عن الفصول والدراسات والمقالات ، بل لقد صدرت صحف متخصصة تفرغت ، تقريبا ، للجدل فى موضوع الـكتاب ، ان بالتأييد أو المعارضة والتفنيد .

ولقد كانت القضـايا الرئيسية التى أثارت الجدل أكثر من غيرها ــ من بين قضايا « تحرير المرأة » ــ هى :

١ ــ ما أثاره الـكتاب عن الحجاب الذى كان يسود عالم المرأة فى ذلك الحين .

٢ ــ ما دعا اليه من ضرورة تقييد الحق المطلق الممنوح للرجل فى انهاء رابطة الزوجية بالطلاق .

٣ ــ نقده لنظام تعدد الزوجات ، والدعوة الى ضبطه وتقييده .

وكان وراء الاهتمام بهذه القضايا ، أكثر من غيرها ، تمثيلها لأهم عيوب النظام الأسرى السـائد ، ولأبرزمشاكل

المراة الشرفية ، ولاخطر القيود التى تحد من امكانيات تطورها وتحررها وكذلك ــ وهو هام جدا ــ العــــلاقة الونيقة بين هذه القضايا ، والبحث فيها ، وبين الشريعة الاسلامية . . ذلك ان الجدل حول اية قضية ذات علاقة بالدين أو الشريعــة الاســـــلامية انمــا ينقل ، وعلى الفور ، هذا الجدل من النطاق الضيق والخاص الى الساحات العامة التى تتواجد فيها وتشـــــارك أوسع الجماهير ، بصرف النظر عن القدرة على استكناه حقائق الأمور والصلاح للادلاء بما هو صواب من الآراء ! . .

ونحن نعتقد ان خصوم قاسم أمين وكتابه «تحرير المرأة» لو فكروا ، أو فكر واحد منهم ، فى ترجمة كتـــــابه « المصريون » عن الفرنسية الى العربية ــ وهو الذى صدر قبل (تحرير المرأة) بخمس سنوات لـكان الذى يرد على قاسم أمين فى (تحرير المراة) هو قاسم أمين فى « المصريون » ؟! .. وبالذات فيمـــــا يتعلق بالقضايا الأساسية الثلاثة التى أثارت الجدل والعراك .

ذلك ان قاسم أمين قد قدم فى « تحرير المرأة » الآراء التى كان ينقضها ويفندها فى « المصريون » ، ومن ثم فاننا عندما نقرأ كتـــــابه « المصريون » يخيل الينا أن الذين يتحدثون ويبرهنون ويجادلون هم خصوم قاسم أمين ، وبالذات فيما يتعلق بالحجاب ، والطــــــلاق ، وتعدد الزوجات !! . .

وهذا هو الأمر الذى دعانا لأن نعقد هذا الفصل عن التطور الفكرى لقاسم أمين . . والذى يدعونا للتساؤل : كيف لم يلتفت الى هذه الحقيقة ، لا خصومه فقط سنة ١٨٩٩ م ، بل ولا احد من دارسيه بعد ذلك التاريخ ؟! .

صحيح ان البعض قد اشار الى ان قاسم قد (فصل)

فى « تحرير المرأة » بعض ما اجمله فى « المصريون » (٤٠)، كما أشار آخرون الى ان حماسه لبعض الآراء فى « المصريون » قد استبدل بالروح الهادئة والمنطق الموضوعى فى « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » .. ولكننا نعتقد ان هذا التشخيص غير كاف ، بل وغير دقيق ، حتى لقد خيل الينا ان دارسيه الذين لم يقفوا عند هذا التطور الفكرى الجذرى الذى حدث لقاسم امين ، اما انهم لم يقرأوا « المصريون » ، أو انهم قرأوا قراءة العابر المتعجل الذى لا تستوقفه ابرز المعالم فى هذا الكتاب ؟! ..

ولتوضيح هذه الحقيقة الهامة .. لننظر فى فكر قاسم أمين فى كتابيه هذين ـ « المصريون » و « تحرير المرأة » ـ خاصة ما تعلق منه بهذه القضايا الثلاث :

الحجاب والمجتمع الانفصالى

يدافع قاسم أمين فى كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م عن نظام الحجاب السائد لعالم المرأة الشرقية على عصره ، ويمتدح النظام الصارم الذى جعل المجتمع الشرقى مجتمعا انفصاليا ، يحرم فيه اختلاط الرجال بالنساء ، ويهاجم تحرر المرأة الأوروبية ، ويغالى فى تصوير مساوىء الاختلاط فى أوروبا ، ويدمغ الرجل والمرأة الأوروبية ، غالبا ، بالتحلل والافتقار الى العفة وصيانة الأعراض .. يقدم فى هذه القضية كل ما قدمه خصومه فيها عندما أصدر « تحرير المرأة » فى سنة ١٨٩٩ م ! .

---

(٤٠) « الهلال » تأبين قاسم أمين . انظر مقدمة الناشر لكتاب « أسباب ونتائج » ص ١٣ .

فهو لايرى فى المجتمع الشرقى ، وما يتميز به من فصل بين الرجال والنساء ، أية قيود تحرم المرأة من حق أو تمنع عنها اى شىء نافع لها أو للمجتمع .. بل يرى ان المساواة متحققة تماما بين الرجال والنساء ، ذلك « أن كل ما نستطيع أن نفعله نحن الرجال تستطيع النساء فعله ، بل ويفعلنه ، وكل ما هو مباح لنا مباح لهن ، وكذلك فان كل محرم علينا محرم عليهن أيضا ، ولما كان محرم علينا : نحن الرجال ، أن ندخل فى مجتمع النساء فيبدو لى ، من الطبيعى ، أن تقع نفس التحريم على نسائنا . واننى أكرر ، من وجهة النظر هذه ، أن وضع الرجل هنا مشابه لوضع المرأة تماما ! » (٤١) .

ثم يقرر ان هذا المجتمع الانفصالى ، الذى كان سائدا يومئذ ، هو التطبيق الأمثل لوصايا وتعاليم الدين ، « لأن ديننا .. قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لا تدخله امرأة واحدة ، وأن يجتمع النساء دون أن يقل بينهن رجل واحد . لقد أراد بذلك حماية الرجل والمرأة مما ينطوى عليه صدرهما من ضعف ، والقضاء الجذرى على مصدر الشر ! » (٤٢) .

نعم .. هذا هو كلام قاسم امين ؟! .. هو كلامه فى « المصريون » سنة ١٨٩٤ م .. وهو أيضا مضمون كلام خصومه عند صدور « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ! ..

ثم يهاجم عادات الأوربيين فيما يتعلق بالاختلاط ، متهما اياهم بالتحلل الخلقى ، مصورا أن نتائج الاختلاط غالبا ما تنتهى بفقدان المرأة عفتها وتفريط الرجل فى عرضه .. يقول :

« اننى أعرف انه يجب تكوين رأى سليم فى الجنس

---

(٤١) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٩ .
(٤٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٣ .

اللطيف ، وأن النساء اللاتى يعرفن ابداء جمالهن يعرفن كذلك الدفاع عن أنفسهن ، غير أنا لا نصادف كل يوم قلاعا حصينة ، فبعد المعارك الكبرى تدق ساعة الاستسلام ، المسألة مسألة صبر ، و « استراتيجية وتكتيك » ! ثم انه حيث يفشل محارب ينتصر آخر أكثر مهارة منه ، والمهم هو البحث عن الظروف الملائمة للنجاح ، والانطلاق فى الهجوم الحاسم ، فى اللحظة المناسبة ، لا قبلها ولا بعدها ! » (٤٣) .

وهو لا يعرض هذه الصورة التى تجعل من الاختلاط وتحرر المرأة الأوروبية عملا مكرسا ، أساسا ، لشيوع التحلل والاستمتاع الحرام .. لا يعرضها بوصفها انحرافا أصاب المجتمع الأوروبى ، وخرج به عن فكره المتمسك بالعفة والشرف ، بل يرى فى هذه الصورة التطبيق لفكر الأوروبيين فى هذا الموضوع .. فيقول :

« يبدو من أفكار الأوروبيين ان استمتاع المرء بالسعادة وحده هو زعم مرفوض ، بل ان الرجل المتزوج من امرأة جميلة يرتكب حماقة اذا رغب فى الاستئثار بها ، ان عليه أن يتيح لها أن تعاونه ، وتدلى بدلوها فى أرضاء أصدقائه ، وهو يفهم أن يمزح أصدقاؤه معها وأن يحاولوا الظفر بقلبها ، ويوجهوا اليها عبارات الغزل المتصلة ، دون أن يقلق الزوج أو يسيء النظر اليهم ، فهم فى الواقع فتيان شجعان ، وبعضهم أصدقاء منذ الطفولة ، ولا شيء مما يفعلونه يعد جادا أو خطرا ، والأمر ، كما يرى ، مجرد دعابة ، ولا شيء غير ذلك ! كما يمنح الزوج فى نفس الوقت اهتماما لزوجات الآخرين ، ويخاطبهن بنفس اللغة ، ويقول لهن نفس المجاملات ، ويوجه اليهن نفس

(٤٣) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

عبارات الغزل ، تلك هي متعة اللقاءات المشتركة ! »(٤٤).

ثم يقارن بين موقفنا نحن الشرقيين من هذه القضية وعاداتنا وتقاليدنا ، وبين موقف الأوروبيين وعاداتهم وتقاليدهم عندما يقول :

« انه على نقيض العادات الأوروبية ، التى يبدو انها خلقت لنشر المتعة على الأرض .. تبدو عاداتنا نحن مستلهمة من الفضيلة ... ان فى العالم الاسلامي مفكرين متحررين وملاحدة ومتشككين وماديين ، وهناك الذين تبنوا العادات الأوروبية فى كل تفاصيل حياتهم ، غير أنه لا يوجد ولن يوجد مسلمون يقبلون الزواج فى ظل العادات الأوروبية ، ويجب لقبولهم هذه العادات أن ينتظروا حتى تسود العالم كله النظرية الفوضوية عن العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود ...

ان عليهم أن يعترفوا كذلك بأننا حين نتزوج نحمل الى نسائنا روحا ما زالت نقية ، وقلبا ما زال مكتمل الحنان ، وحواس أكثر نداوة مما يفعلون هم ساعة زواجهم . فالزواج عندنا بداية ، فى حين انه عندهم ، تقريبا ، دائما نهاية ! .. » (٤٥) .

هكذا كتب قاسم أمين فى كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م .

١ ـ فحبذ الحجاب للمرأة الشرقية ، ودافع عن المجتمع الشرقي الانفصالى .. ورأى فى ذلك التطبيق الأمين لتعاليم الاسلام ، والتحقيق للمساواة الحقة بين الرجال والنساء ! ..

٢ ـ ووجه سهام نقده وهجومه الى الاختلاط فى

(٤٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٢ .
(٤٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

أوروبا ، وعمم على مجتمعاتها تلك الصورة التى ربمـــا كانت خاصة بشريحة هامشية فى تلك المجتمعات .

٣ ـ وخلص الى أن الشرق والمرأة الشرقية ليست لديها قضية ولا مشـــكلة تستحق البحث والدعوة الى التغيير .. وان المشكلة هناك لدى أوروبا التى أباحت الاختلاط ففقدت النعيم الذى ينعم به الشرقيون ؟! ..

والآن .. ماذا كتب قاسم أمين عن هـــذه القضية فى « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ؟! ..

فى « تحرير المرأة » ينقض قاسم أمين ما قرره من قبل من ان الحجاب ميزة للمجتمعات الشرقية ؛ يرتبط فيها بتعاليم الاسلام .. ويراه « عادة » مرت بمجتمعات عديدة ، ومنها مجتمعات أوروبية ، ويقرر أن تطور هذه « العادة » بل واندثارها أمر ممكن وخاضع لما تخضع له غيرها من « العادات » .. يقول : وذلك « لأن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة فى العالم . قال « لاروس » تحت كلمة « خمار » : « كانت نساء اليونان يستعملن الخمار اذا خرجن ، ويخفين وجوههن بطرف منه ، كما هو الآن عند الأمم الشرقية » . وقال « ترك الدين المسيحى للنساء خمارهن وحافظ عليه عنـــدما دخل فى البلاد ، فكن يغطين رءوسهن اذا خرجن فى الطريق وفى وقت الصـــلاة ، وكانت النساء تستعملن الخمار فى القرون الوسطى ، خصوصا فى القرن التاسع ، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريبا ، واستمر كذلك الى القرن الثالث عشر ، حيث صارت النساء تخفف منه الى ان صار ، كما هو الآن ، نسيجا خفيفا يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولـكن

بقى بعد ذلك بزمن فى أسبانيا وفى بلاد أمريكا التى كانت تابعة لها » (٤٦) .

ثم سار ـ فى « تحرير المرأة » ـ مواصلا موقفه الفكرى الجديد ، فنفى أن يكون هذا الحجاب تنفيذا لتعاليم الاسلام ، فهو « عادة » لا « شرع » .. فقال : « .. ان الأوامر الالهية يجب الاذعان لها دون بحث ولا مناقشة ولكننا لا نجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب ، على هذه الطريقة المعهودة ، وانما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين .. والدين براء منها » (٤٧) .

ثم رأيناه يطلب موقفا وسطا ، لا هو تبرج الغرب ومغالاته فى عرض مفاتن المرأة ، ولا هو الحجاب الشرقى ومنع اختلاط الرجال بالنساء ، فيقول : « ان الغربيين قد غلوا فى اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجل ... وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعى ، وهوالذىادعواليه»(٤٨).

ومعروف ان الحجاب الشرعى لا علاقة له بمنع الاختلاط ، اذ هو يعنى ستر جسم المرأة ومفاتنها ، عدا الوجه والكفين .. وبعد ان كان قاسم أمين يدافع ـ فى « المصريون » ـ عن المجتمع الانفصالى ، ويراه التنفيذ لتعاليم الدين الاسلامى ، اخذ يهاجم هذا المجتمع الانفصالى ، ويستنكر امكانية ممارسة المرأة لواجباتها

(٤٦) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٤ .
(٤٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٥ .
(٤٨) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٣ .

ومهماتها فى الحياة طالما ساد الانفصال بين الجنسين في المجتمع ، اذ « كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة ؟! .. ان الضرورة احالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ، كما نشاهده في الخادمات والعاملات وسكان القرى ، حتى من أهل الطبقة المتوسطة، بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى ، والكل مسلمون ، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه فى أهل المدن ! » (٤٩) .

وبعد ان كان الاختلاط عنده شراكا يستخدمها الرجل للايقاع بالمرأة فى حبائل الحب والعشق والمتعة ، اخذ ينفى هذا الفهم السطحى ، ويرى قطاعات المجتمع التى يلعب الاختلاط والتحرر فى حياتها دورا انتاجيا ونضاليا فى سبيل العيش ، ويدرك رقى أخلاق هذه القطاعات حتى عن الشرائح التى تتستر بمباذلها خلف الحجاب ! فكتب مقررا « أن نساء العرب ونساء القرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط فى أوروبا تقريبا ، أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن اللائى لا يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد . وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة ! » (٥٠).

هكذا حسم القضية هذا الحسم الجديد ! .

وبعد الصورة التى قدمها ــ فى « المصريون » ــ للمرأة الأوروبية والغربية ، صورة العاشقة الغانية ، والفريسة التى لا تلبث ان تستسلم ، سريعا أو بعد زمن ، لاغراء

(٤٩) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٤٨ .
(٥٠) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٥٩ .

الرجل الساعى لاقتناصها ، عاد قاسم أمين عن رأيه هذا فى نساء الافرنج ، فرأى انهن « يحـــافظن على ظواهرهن ، على العموم » .. (٥١) وأثنى على تمتع المرأة الأمريكية بحريتها ، وتحدث باعجاب عن الاختلاط هناك « فنساء أمريكا هن اكثر نساء الأرض تمتعا بالحرية ، وأكثرهن اختلاطا بالرجال ، حتى ان البنات فى صباهن يتعلمن مع الصبيان فى مدرسة واحدة ، فتقعد البنت بجانب الصبى لتلقى العلوم ! » (٥٢) .

ومع هذا الاختلاط فى الغرب ، نهضت المرأة ، ونهضت الأمة .. « فكل مطـــلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك فى انهن يأتين من الأعمـــال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه ! » (٥٣) .

تلك هى قضية الحجاب .. وموقف قاسم أمين منها .. موقفه القديم كمـــا صوره فى كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م ، وموقفه الجديد ، والمناقض جذريا لموقفه القديم ، والذى عرضه فى كتــابه « تحـرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م .

***

تقييد الطـلاق

والقضية الثانية التى نقدمها مثلا حيا وواضحا للتطور الفكرى الذى مر به قاسم أمين ، هى قضية الموقف من « الطلاق » .. وهل هو حق مطلق للرجل ؟ .. أم ان الأمر يستدعى تقييد هذا الحق ووضع الضوابط على هذا الاطلاق ؟ ..

---

(٥١) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٩ .
(٥٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٥٩ .
(٥٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٨٠ .

ذلك ان قاسم أمين ، في كتابه « المصريون » ، يدافع عن بقاء الحرية الكاملة ، وغير المقيسدة ، للرجل ليوقع الطلاق ويفصم عرى العلاقة الزوجية عندما يقرر ذلك ويراه السبيل لما يتصوره صوابا .. وهو هنا يستنكر الآراء الاصلاحية التي يرى أصحابها ضرورة جعل الطلاق بحكم من القاضي بعد بذله الجهد ـ بواسطة التحكيم ـ لاصلاح ذات البين .. وهو يصور موقفه هذا عندما يقول :

« .. غالبا ما يكون الطلاق علاجا أسوأ من الداء ، غير ان له ، كجميع الأدوية ، موهبة الشفاء في بعض الأحيان ، انه عملية بتر يذعن لها المصاب كارها دائما ، مطلقا صرخات الألم ، ولكنها مع ذلك تنقذه من الموت .

وقد رأى المشرع الاسلامي من الضروري ترك هذه المسألة الخطيرة في يد الزوجين يتصرفان فيها بحريتهما، فالمسألة تتعلق بحياتهما وبسعادتهما وبمستقبلهما ، وذلك أهم ما يمكن أن يكون ركيزة لفكرهما وهما يتوليان بأنفسهما مهمة اصدار الحكم على مصيرهما الذاتي .

انني لا أفهم أن يقيم الانسان دعوى ليحصل على الطلاق فتلاقي الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضي ، كالتنازع على برميل نبيذ أو جدار مشترك . أية محكمة تلك التي تزعم قدرتها على توجيه قلبي وشد وثاقه ، وهو المتقلب كثير النزوات ؟! وماذا يعرف هؤلاء القضاة ؟! ان موضوع هذه القضية هو شخصيتي الصعبة المعقدة التي تحتاج عدة سنوات من عبقري مثل « زولا » لكي يفهمها ويحللها ويحكم عليها ! » (٥٤) .

ولكن قاسم أمين يعود عن موقفه هذا ، ويتبنى الرأى

---

(٥٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

المعاكس لرأيه الذي اسلفناه ، وان يكون بالتدريج ، فيبدأ بالشكوى من مضار الاسراف القائم والحاصل في استخدام الرجال لحقهم المطلق في الطلاق .. فهو قد أصبح « اهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة » .. ومع ذلك « اعتاد أهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جدا ، لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل .. » (٥٥) .

ثم بعد ذلك يحسم الموقف ، فيدعو الى تقييد الاطلاق الذى يتمتع به الرجل فى ايقاع الطلاق ، وينقض ، فى « تحرير المرأة » ، منطقه فى « المصريون » ، فتتبدل المواقف ، ويرفع خصومه فى سنة ١٨٩٩ م نفس حججه هو فى سنة ١٨٩٤ م ! نعم .. يطلب قاسم امين ، فى « تحرير المرأة » ، أن توضع القيود على الطلاق .. وذلك من مثل :

١ ـ قيد الارادة الواضحة والنية الحقيقية على فصم عرى الزوجية .

٢ ـ قيد الاشهاد على وقوع الطلاق .

٣ ـ قيد التحكيم الذى حدده القرآن بهدف محاولة الاصلاح .

٤ ـ قيد جعل ايقاع الطلاق من اختصاص القضاء .

وفى هذا الأمر يكتب ليقول :

« .. يجب أن يفهم ان الطلاق انما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج ، وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزوج وارادة واضحة فى انه انما يريد الانفصال من زوجته .. وان لمريد الاصلاح ان يبحث فى كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت ، خصوصا اذا

(٥٥) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٢٥ .

كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاما ... فلم لا يجوز ، مع ظهور الفساد في الأخلاق والضعف في العقول وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من ان الاشهاد شرط في صحة الطلاق ، كما هو شرط في صحة الزواج ، كما ذكره « الطبرسي » ، وكما تشير اليه الآية الواردة في سورة الطلاق ، حيث جاء في آخرها : (واشهدوا ذوي عدل منكم) ، (٥٦) أليس هذا أمرا صريحا بالاشهاد ، يشمل كل ما اتى قبله من طلاق ورجعة وامساك وفراق ؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهور لدى العموم ليسهل اثباته ؟ لم لا نقرر ان وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحا ؟ .. نظن ان في الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ، ورعاية لمصلحة الناس ، وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد أطلع على ما تصل اليه الأمة في زمان كزماننا هذا ، فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاما لنا نرجع اليه عند مسيس الحاجة ، كما هو شأننا اليوم » .

ثم يستطرد قاسم امين ليصوغ مشروعا بقانون يقترحه على الحكومة لتقييد الطلاق ، فيقول :

« ... بل ان أرادت الحكومة أن تفعل خيرا للأمة فعليها أن تضع نظاما للطلاق على الوجه الآتي :

المادة الأولى : كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة أختصاصه ، ويخبره بالشقاق الذي بينه وبين زوجته .

المادة الثانية : « يجب على القاضي أو المأذون أن يرشد الزوج الى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على ان

---

(٥٦) الطلاق : ٢ .

الطلاق ممقوت عند الله ، وينصحه ، ويبين له تبعة الأمر الذى سيقدم عليه ، ويأمره أن يتروى مدة أسبوع .

المادة الثالثة : اذا أصر الزوج . بعد مضى الأسبوع ، على نية الطلاق ، فعلى القاضى او المأذون أن يبعث حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة ، أو عدلين من الأجانب ان لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

المادة الرابعة : اذا لم ينجح الحكمان فى الاصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريرا للقاضى أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصح الطـلاق الا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصبح الطلاق الا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون ، وبحضور شاهدين ، ولا يقبل اثباته الا بوثيقة رسمية ... وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج ، وانما هو وسيلة للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل ولمصلحة الزوج نفسه ! .. ان وضع الطلاق تحت سلطة القاضى ادعى الى تضييق دائرته وادنى الى المحافظة على نظام الزواج » (٥٧) .

هكذا استدار فـكر قاسم أمين دورة كاملة ، فتبنى سنة ١٨٩٩ م فكر خصومه فى سنة ١٨٩٤ م ، كمـا تبنى خصـومه فى سنة ١٨٩٩ م فـكره هو فى سنة ١٨٩٤ ؟! ..

---

(٥٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٤ .

تعدد الزوجات

والقضية الثالثة التى نقدمها ضمن الأمثلة والأدلة على تطور فكر قاسم أمين هى موقفه من « تعدد الزوجات » .. فعلى الرغم من ان كلا من كتابيه « المصريون » و « تحرير المرأة » يشترط قيام الضرورة لجواز التعدد والتزوج بأكثر من زوجة واحدة ، الا انه فى « تحرير المرأة » كان أكثر ميلا لتغليب منع التعدد على اباحته وتجويزه ، كما كان كذلك أكثر تنبيها على مضاره ومخاطره .. بل لقد تحدث فى « المصريون » عن أمور نفى أن تكون مخاطر اجتماعية سببها التعدد ، ثم عاد فى « تحرير المرأة » فرآها خطرا يجب لأجلها منع هذا النظام .

فهو فى « المصريون » يتحدث عن موقف الشرع الاسلامى من التعدد فيذهب الى ان الشرع الاسلامى يتحدث الينا ، عن التعدد ، قائلا : « من الناحية المبدئية تزوجوا بامرأة واحدة ، اننى أنصحكم بذلك من أجل راحتكم ، فاذا حدث حادث حطم ، لسبب من الأسباب ، حياتكم الزوجية ، فتستطيعون أخذ زوجة ثانية ، ويمكن لكم ان ساء حظكم اتخاذ زوجة ثالثة أو رابعة . ولكن ، فليكن معلوما لكم أننى لا أبيح لكم ذلك الا اذا كنتم مضطرين اليه وخاضعين لضرورات محددة .. واننى أفرض عليكم ... ان تعاملوا هؤلاء النساء جميعا ، فى كل الأمور ، بعدالة كاملة ومساواة دقيقة ، وأن تكون هذه النسوة جميعا زوجاتكم على نفس المستوى ، وان تقوموا بكل نفقاتهن ، وأن يكون الأطفال الذين يضعنهن أولادكم ، فتسهرون على تعليمهم جميعا بنفس الاهتمام واليقظة .. فاذا أحسستم القدرة على أداء هذه الواجبات العديدة

والمتنوعة ، واذا وجدتم انفسكم فى حالة ضرورة تحتم الخضوع لها فتزوجوا بأكثر من واحدة ، والا فلا تأخذوا الا زوجة واحدة ، وهذا افضل .. » .

كما يعرض قاسم أمين ، فى هذا الكتاب . نراى الذين ينادون بمنع التعدد أو تقييده تقييدا شديدا ، لأنه قد اصبح مصدرا لشيوع العداوة والبغضاء بين الاخوة المولودين من أمهات عدة ، فيرفض هذه الحجة . ويقول « يتخيل الناس ، بصفة عامة ، أن الأطفال الذين يولدون من أمهات مختلفة يحدث لهم ، بالضرورة ، ان يتبادلوا الكراهية ، وان يتعاركوا صبحا ومساء ، ومع ذلك فان هذا لا يحدث ، والمسألة مسألة تعود !! » (٥٨) .

وبعد ذلك نرى فكره يتطور عندما يعرض القضية فى « تحرير المراة » تطورا ملحوظا . فهو يقول : « .. لا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة ، اللهم الا فى حالة الضرورة المطلقة ... وغاية ما يستفاد من آية التحليل ـ (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى الا تعولوا) .. (٥٩) ـ انما هو حل تعدد الزوجات اذا أمن الجور . وهذا الحلال ، كسائر أنواع الحلال ، تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى ، من المنع والكراهية وغيرها ، بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح ، فاذا غلب على الناس الجور بين الزوجات ، كما هو مشاهد فى أزماننا ، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد فى العائلات ، وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها ، وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة ، وشيوع ذلك

---

(٥٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٨٥ ـ ٨٧ .
(٥٩) النساء : ٣ .

الى حد يكاد يكون عاما ، جاز للحاكم ، رعاية للمصلحة العامة ، ان يمنع تعدد الزوجات ، بشرط أو بغير شرط ، على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة .. » (٦٠) .

فهو هنا يتحدث عن قيام فساد فى العائلات وعداوة بين اعضائها بسبب التعدد ، وهو ما كان ينكره من قبل .. وهو هنا يتحدث عن جواز اصدار تشريع يمنع التعـدد مطلقا اذا غلبت المفاسد الناشئة عنه فى المجتمع ، ولا يترك القضية برمتها للموقف الفردي والتصرف الفردى كمـا كان عليه موقفه فى كتاب « المصريون » .

وهو تطور ملحوظ فى فكره حيال هذا الموضوع .

هكذا أصاب التطور فكر قاسم أمين ما بين سنة١٨٩٤م، عندما أصدر رده على دوق دراكور وما بين سنة ١٨٩٩ م عندما أصدر « تحرير المرأة » .. وهو التطور الذى سقنا عليه الأدلة ، وقدمنا النماذج والأمثلة التى تبرهن عليه فيما تقدم من صفحات .

لكن ، يبقى سؤال هام لابد من الاجابة عليه .. وهو :

لماذا كان هذا التطور الفـكرى ، عنـــد قاسم أمين أساسا وبالدرجة الأولى ، فى تحـــديد رأى الشرع الاسلامى من القضايا التى كانت مثارة يومئذ بين الباحثين فى قضـايا الأسرة والمرأة وشئونهما ؟ وبالتحـديد فى قضايا : الحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ؟ .

اننا لا نلحظ تطورا فكريا بارزا فى آرائه الأخرى ، مثل آرائه فى : الأدب ، واللغة ، والسياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والمنهج ، والحضارة .. الخ .. الخ .. الخ .. والذى لاحظناه هو أن التطور الملحوظ كاد ان يقتصر على الآراء التي حـــواها كل من « المصريون »

(٦٠) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

و « تحرير المراة » باعتبارها راى الشرع الاسلامى فى مشاكل الأسرة وعلاجها .

واهمية هذا السؤال ، ومن ثم اهمية الاجابة عليه ، تكمن فى ذلك الراى والموقف الذى ابديناه من قبل عندما كتبنا الدراسة التى قدمنا بها (للأعمال الكاملة للامام محمد عبده) فقلنا يومها : اننا مع القائلين بأن للامام محمد عبده مشاركة فى تأليف كتاب « تحرير المراة » ، ولقد قدمنا ادلتنا التى تثبت ان الفصول التى عرضت لرأى الشرع فى قضايا الحجاب والزواج والطلاق وتعدد الزوجات ، بهذا الكتاب ، هى للأستاذ الامام ، وليست لقاسم أمين .

لقد رأينا ذلك ، وكتبنا عنه صفحات أثبتناها كذلك فى التقديم للأعمال الكاملة لقاسم أمين .. ونحن نود أن نضيف هنا :

أن هذه الدراسة التى قدمناها ، فى هذا الفصل ، عن التطور الفكرى لقاسم أمين ، هى دليل جديد يدعم ذلك الرأى الذى سبق لنا أن قررناه .

ذلك ان جوهر الحجة التى قدمناها ، ودللنا عليها يومئذ ، هو أن الفكر الاسلامى المتخصص الذى قدم فى هذه الفصول هو من صنع امام مجتهد فى الاسلام ، ولم يكن فى ذلك العصر أقدر من الشيخ محمد عبده على الادلاء بهذه الاجتهادات واصدار هذه الأحكام ، وان هذا الميدان ليس ميدان قاسم أمين .

كما ان جوهر حجة خصوم هذا الرأى كان ان قاسم أمين ليس غريبا عن الشريعة الاسلامية ومباحثها ، فلقد درسها كرجل قانون ضليع .

ولكن .. بعد دراستنا هذه عن تطوره الفكرى ..

لنا أن نسأل : هل درس قاسم الشريعة بين سنتي ١٨٩٤ م و ١٨٩٩ م ؟! .. أم قبل ذلك بكثير ؟! .. ان المعلوم انه تخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٨٨١ م ، وأنهى دراسته القانونية فى فرنسا سنة ١٨٨٥ م .. ومنذ ذلك التاريخ وهو يمارس وظائف القضـــاء ، فى النيابة أو مستشارا فى محـــكمة الاستئناف .. فاذا ما جاء فى سنة ١٨٩٤ م وقدم لنا فى كتابه « المصريون » تلك الآراء التى قال عنها انها آراء الشرع الاســـلامى فى الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات ، كنا مطالبين بأن نقول : ان هذه ثمرة دراسة قاسم أمين للشرع الاسلامى ، وفهمه له فى تلك المباحث .. واذا ما قدم لنا فى « تحرير المرأة » آراء الشرع الاسلامى ، فى هذه القضايا ، على نحو مناقض لما فى « المصريون » كان لنا ، ان لم يكن علينا ، أن نؤيد ونزكى قول من قال : ان الفصول التى حواها « تحرير المرأة » عن رأى الشرع فى هـذه القضايا انما هى للأستاذ الامام محمد عبده ، أسهم بها مع قاسم أمين فى تأليف هذا الـكتاب .

ومن هنا نستطيع أن نقول : ان هذه الصفحات التى قدمناها عن التطور الفـكرى لقاسم أمين ، هى دليل جديد يضاف الى الأدلة التى سبق أن قدمناها ونحن نقدم لأعمال محمد عبده على وجهة النظر هذه فيما يتعلق بـكتاب « تحرير المرأة » .. والفضل فى اضافة هـذا الدليل الجديد يعود ، فى الأساس الى استنادنا فى دراستنا هذه ، التى نقدمها ، على كتاب « المصريون » ، الـذى ترجم عن الفرنسية للمرة الأولى ، والـذى كان الدليل الأول على هذا التطور الفكرى القائم فى آثار قاسم أمين ..

حـــريــــة المـــــــرأة

(هناك تلازم بين الحـــالة السياسية والحـــالة العائلية ••• فشكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية، والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية ••• ففي الشرق نجد المرأة فى رق الرجـــل ، والرجل فى رق الحكومة •• وحيثما تتمتع النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجـــال بحريتهم الســياسية ، فالحالتـــان مرتبطتان ارتباطا كليا •

وافتقار المرأة المســلمة الى الاســـتقلال بكسب ضروريات حياتها هو السبب الذى جر ضياع حقوقها ، فلقد استأثر الرجل بكل حق ، ونظر اليها نظرته الى حيوان لطيف ، يكفيــه لوازمه كى يتسلى به ! ••)

قاسم امين •

ان التعميم فى الحكم على الميراث العربى والشرقى فيما يتعلق بحقوق المراة والنظرة اليها وتقييم دورها فى المجتمع وعلاقتها بالرجل ، ذلك الميراث الذى واجهه قاسم امين ومعاصروه عندما فكروا فى دخول هذا الميدان من ميادين الاصلاح الاجتماعى .. ان التعميم فى الحكم على هذا الميراث هو خطأ كبير ..

ذلك ان تراث العرب والشرق قد اشتمل على تيارين رئيسيين تمايزا الى حد كبير فى هذا الموضوع .. فحيثما كانت هناك حركات فكرية عقلانية أو ثورية أو تقدمية ، وجدنا للمرأة فى صفوفها دورا ملحوظا ، نسبيا ، ووجدنا فى فكر هذه الحركات والتيارات حديثا مشوبا بالكثير من الاحترام للمرأة ودورها فى الحياة .. نجد ذلك عند المعتزلة ، والخوارج ، وبعض فرق الشيعة .

وحيثما كانت السيادة للفكر المتخلف ، والمهام الأولى للحركات الفكرية هى التبرير لمظالم الحكم واضفاء الشرعية على تصرفات المستبدين بالسلطة والسلطان كان الاحتقار للمرأة ، والنظر اليها كسلعة من سلع المتعة ، ومخلوق جميل وضعيف قد خلقه الله كى تتزين به القصور ويستمتع به الرجال ..

ولما كانت الغلبة والسيادة ، ان فى الزمن طولا أو فى الصوت قوة وعلوا ، كانت من نصيب ذلك المفهوم الثانى والتقييم الأخير ، فلقد أصبحت ألوان تراثنا الفكرى مليئة بـكل ما يحقر المرأة ويغض من شأنها ، ورسخ ذلك فى فـكرية المجتمع الشرقى ، خصـوصا بعـد ان طال ليل العصور « المملوكية ـ العثمانية » ، حتى لقد غابت من الميراث الفـكرى الذى كان الناس يتداولونه أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تلك القسمة الأخرى فى تراثنـا ، التى تنصف المرأة وتضع اعتبارا لدورها الايجابى فى الحياة .

ومن هنا نستطيع أن نتخيل : اى ميراث فكرى كان يطالعه جيل قاسم أمين عن المرأة وحظهـا من الحرية ونصيبها من المساواة ؟! .. وهذا التخيل أمر ضرورى ، لا لتقييم العمل الفكرى والتطبيقى الذى بذله وانجزه قاسم امين ، فى ذلك الميدان ، التقييم الذى يستحقه فحسب ، بل ولادراك : لماذا كانت أحلام قاسم أمين وجيله فى هذا الميدان متواضعة جدا ، عندما ننظر لها الآن فى ضوء ما أنجزته حركة تحرير المرأة فعلا ، فضلا عن الآمال التى لا زالت تسـعى فى سبيل تحقيقها على هـذا الدرب الطويل .

ونحن نستطيع أن نكشف ملامح تلك الفكرية المتخلفة التى ورثها ذلك الجيل ، فى هذا الموضوع ، بالاشارة الى نصين يعبر كل منهما عن فكرة وموقف حددهمـا المجتمع من المرأة .

أولهما : يعبر عن المقولة القائلة « بأن موت المرأة خير من حياتها » ، وان بطن الأرض أكرم لها وللحيـــاة من

ظهرها !! .. ويعبر عن هذه المقولة ابو بكر الخوارزمى (٩٣٥ ــ ٩٩٣ م) عندما يكتب الى رئيس « بهراء » معزيا فى وفاة ابنته ، فيقول :

« ... ولولا ما ذكرته من سترها ، ووقفت عليه من غرائب أمرها ، لكنت الى التهنئة أقرب من التعزية ! فان ستر العـورات من الحسنات ، ودفن البنات من المـكرمات ! ونحن فى زمان اذا قدم أحدنا فيه الحرمة ، فقد استكمل النعمة ، واذا زف كريمة الى القبر ، فقد بلغ امنيته من الصهر ! قال الشاعر :

ولم أر نعمـــة شملت كريما
كنعمة عــورة سترت بقبر

وقال آخر :

تهوى حياتى وأهــوى موتها شفقا
والموت أكـرم نزال على الحــرم

وقال آخر :

وددت بنيتى وودت أنى
وضعت بنيتى فى لحـــد قبرى

وقال آخر :

ومن غاية المجــــد والمكرمات
بقـــاء البنين وموت البنات

وقال آخر :

سميتها اذ ولدت : تموت
والقبر صــهر ضــامن وبيت !! (٦١)

وثانيهما : ــ أى ثانى النصين ــ هو المعبر عن سيادة المجتمع الانفصالى ، وصرامة هذا الفصل بين الرجال

(٦١) «الهلال» تأبين قاسم أمين . انظر مقدمة ناشر « أســـباب ونتائج » ص ٤ ، ٥ .

والنساء .. ويعبر أبو العلاء المعرى (٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م) عن هذه المقولة عندما يقول :

اذا بلغ الوليـــد لديك عشرا
فلا يدخل على الحـــرم الوليد
وان خالفتنى وأضعت نصحى
فأنت ، وان رزقت حجى ، بليد
الا أن النســـاء حبـــال غى
بهن يضيع الشرف التليــد ! (٦٢)

تلك كانت مواريث الفكر ، عن المرأة ، التى واجهها قاسم أمين وجيل قاسم أمين .. ومن ثم فنحن نستطيع أن نبصر عمق قاسم أمين عنـــدما ربط بين تخلف المرأة وعبوديتها وبين سيادة النظم المستبدة ، فى فترات طويلة ، حياة الشرق ومجتمعاته .. فلا الاسـلام ، ولا طبيعة الأشياء ، ولا خصائص ضعف المرأة وقصورها ، هى التى ميزت بين الرجال وبين النساء وقسمت شئون الحياة بينهم تلك القسمة غير العادلة ، وانمـــا هو الاستبداد الذى جعل من المرأة احدى فرائسه ، فكبلها بالقيود والأغلال .. ومن ثم فان تحررها مرتبط بتحرر الرجل من الاستبداد ، أى بتحرر المجتمع ككل .. وهو يعبر عن هذه الفـكرة الهامة عندما يتحدث عن « أن مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة ، والحكومة التي تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها .. فهناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد ، ففى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق

(٦٢) « لزوم مالا يلزم » جـ ١ ص ٢٤٧ . تحقيق أمين عبد العزيز الخانجى . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤ م .

حط بنفسه وأفقدها وجدان الحرية ، وبالعكس ، فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كليا .

وآن للسائل أن يسأل : أي الحالتين أثرت فى الأخرى ؟ نقول : انهما متفاعلتان ، وان لكل منهما تأثيرا فى مقابلتها ، وبعبارة أخرى : ان شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية .

انظر الى البلاد الشرقية ، تجد ان المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحاكم ، فهو ظالم في بيته مظلوم اذا خرج منه ! ثم انظر الى البلاد الأورباوية ، تجد أن حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية ، فارتفع شأن النساء فيها الى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل ! » (٦٣) .

وحقيقة اخرى على جانب كبير من الأهمية ، والعمق أيضا ، وعاها قاسم أمين ، عندما أدرك أن افتقار المرأة الى « الاستقلال الاقتصادى » ، وبعدها عن ميادين العمل المنتج فى المجتمع جعلها تابعة وخاضعة لمن يسد رمقها ويضمن لها مقومات الحياة وضرورياتها .. وادراك قاسم أمين لهذه الحقيقة هو امتداد للمنهج الاجتماعى الذى استخدمه فى دراسة المجتمع وتفسير التاريخ .. وهو يعبر عنها عندما يتحدث عن عمل المرأة ودوره فى تحريرها ، اذ « لو تبصر المسلمون لعلموا ان اعفاء المرأة من أول واجب عليها ، وهو التأهل لكسب ضروريات الحياة

---

(٦٣) « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » . ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

بنفسها ، هو السبب الذى جر ضياع حقوقها ، فان الرجل لما كان مسئولا عن كل شيء استاثر بالحق فى التمتع بكل حق ، ولم يبق للمرأه حظ فى نظره الا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلا منه ، على أن يتسلى به ! » (٦٤) .

ذلك هو الميراث الفكرى ، المعبر عن الواقع العملى ، اى وجها العملة المجسدة لوضع المرأة فى المجتمع الشرقى عندما نادى بتحريرها قاسم امين .

وذلك هو تقييمه للأسباب الجوهرية لذلك الوضع المتخلف الذى كانت عليه النساء فى مجتمعه الذى عاش فيه .

***

ونحن نستطيع ، دون تفصيل يطيل بنا الحديث ، أن نستدعى الى الأذهان صورة امرأة ذلك العصر ، كما رآها قاسم أمين .

فهى ، اجتماعيا ، لا وجود لها لعزلتها عن المجتمع وقبوعها خلف جدران الحريم .. وكما يقول قاسم أمين : فانه « ليس بين الأمهات الا عدد قليل جدا يعرف القراءة والكتابة ، وليس واحدة لها المام ، ولو سطحيا ، بمقدمات أى علم من العلوم أو فن من الفنون ، وهى فوق ذلك جاهلة بكل أحوال الدنيا ، ولا تدرى شيئا من المعاملات والتجارة ولا من نظامات وقوانين البلاد التى تسكنها ، فضلا عن الالمام بأى شيء من أحوال البلاد الأخرى ، وهى مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا يجمعه بعالم الرجال فكر أو عمل ، وأمة داخل الأمة لها أخلاقها وعوائدها ومعتقداتها . وفى الحقيقة : انهن

(٦٤) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٣ .

أثار عتيقة لأجيال مضت وبقايا أزمنة بعيدة ... باقيات على ما كن عليه فى تلك الأوقات ! » (٦٥) .

ولم يكن حال المرأة داخل المنزل بالخير كله ، فلم تكن ، كما قد يتوهم البعض ، ملكة لمملكة المنزل ، وانما كانت مخلوقا ضعيفا قد اعد ويعد للاستمتاع اولا وقبل كل شيء .. وعن حالتها المعنوية هذه يقول قاسم أمين :

« وأما من الناحية المعنوية ، فهى ـ (أى المرأة) ـ مخلوق متكاسل ، ذات طبيعة تاملية ، وبعيدة عن الفاعلية ، تكثر الحديث والضحك ، تحب دينها ، لكنها لا تمارسه ! ، ليس لهـا مثل أعلى ، وتتأقلم مع الحياة الواقعية ، وهى زوجة نموذجية ، وأم حانية ، لـكنها محدودة المواهب فى التدبير المنزلى ! » .

فهى مخلوق ذبلت مواهبه وامكانياته من طول تعطلها وحرمانها من التدرب على ممارسة ما خلقها له الخالق سبحانه ! .. ولقد بقيت لها من هذه المواهب والامكانيات ما كان متعلقا منها « بالشكل » ، فهى على قدر لا بأس به من الجمال « يتجلى على وجه الخصوص فى نسب أعضائها . ومتانة الجسد وتماسكه ، كم تنتشى العيون التى تتطلع الى فـلاحة جميلة تمشى مستقيمة بارزة النهدين مثقلة القوام ممتلئة العينين بالأحلام ، طويلة تقريبا ، فى كفيها وقدميها دقة رائعة ! .. أما ما تتميز به حقا فهو عيناها الواسعتان السوداوان الحانيتان حتى ليحسبها المرء عينى « ملاك » ، والمعبرتان ، حتى ليفهمهما المرء قبل أن تتحدث هى ! » (٦٦) .

---

(٦٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٧ .
(٦٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وعلى عظم الضجة وضخامة الرفض الذين قوبلت بهما صيحات قاسم أمين ، فان مطالب الرجل كانت متواضعة ، بل شديده التواضع ، اذا ما قيست بما يجب لتحرير امراة حقا من انجازات واصلاحات . ولكن هذه المطالب كانت تمثل ثورة حقيقية وتغييرا جذريا فى فكر المجتمع واعرافه بالقياس الى واقع المراد الذى اشرنا الى الملمح العام من ملامحه .

ففى التعليم : لم يطلب قاسم امين مساواة بين المرأة والرجل فى جميع مراحله .. بل طلب لها فقط المساواة به فى التعليم الابتدائى !؟ .. وعبر عن مطلبه المتواضع هذا عندما قال :

« .. ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم ، فذلك غير ضرورى ، وانما أطلب الآن ، ولا أتردد فى الطلب ، ان توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل ، وأن يعتنى بتعليمهن الى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين » .

وهو لا ينسى فى حديثه عن تعليم المرأة ان يميز بين التعليم الجاد الذى يطلبه لها ، وهو الذى يصبح فى حياتها قوة تغير سلبيتها فتجعلها ايجابية، ويطورها بتطور مجتمعها ، وبين ذلك التعليم الذى ليس له من التعليم سوى المظهر والقشور .. ولذلك فهو ينتقد ما كان موجودا يومها من « تعليم » تتلقاه المرأة ، كى تظل به « متعة » أكثر جودة ... فيقول :

« .. أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف ، لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية ، وشيئا من الخياطة والتطريز ، والموسيقى ، ولا يتعلمن من العلوم ما يستفدن منه فائدة يلتفت اليها، وربما زادتهن

تلك المعارف غرورا بأنفسهن ، فتظن الواحدة منهن انها متى عرفت أن تقول : نهارك سعيد ، باللغة الفرنساوية ، فقد فاقت أترابها ، وارتفع شأنها ، وسما عقلهـــا ، ولا تتنازل بعد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية ، فتقضي حياتها في تلاوة أقاصيص وحكايات قلما تفيـد الا فى اثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالما لطيفا تسرح فيه طرفها وهى شاخصة الى دخان السيجارة التى تقبض عليها ! ..

أكثر ما تعرفه المرأة ، التي يقال الآن انها متعلمة ، هو القراءة والكتابة ، وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى اليها ، وما بقى من معارفها فهى قشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منهـا واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء . أين هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغذى منها العقل ويتقوى على مطاردة الوهم ؟! » (٦٧) .

ذلك هو حال تعليم من كن يتعلمن يومئذ من البنات .. وهذا هو رأى قاسم فى هذا التعليم .. ومطلبه فى تعليم النساء .

وفى الحجاب : لم يطلب قاسم سفور المرأة على النحو الذى كان عليه أمرها فى أوروبا يومئذ ، ولا على النحو الذى وصل اليه أمرها هذه الأيام .. وهو كذلك لم يطلب اباحة خلوة المرأة بالرجل الواحد ، وهو غريب عنها ، ليس بمحرم لها .. وانما طالب فقط بكسر أسوار عزلة المرأة عن المجتمع ، وتحريرها من الحجاب المعوق لها عن العمل وممارسة وظائفهـا العامة والطبيعة الضرورية ، وحبذ الوقوف بالحجاب عند ما هو شرعى منه وفق آراء

(٦٧) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٣٦ ، ٣٧ .

الفقهاء ، ونادى بالاختلاط الذى تحتمه ضرورات العمل ومقتضياته فى معترك كسب الرزق والحياة .. وعن هذا المطلب المتواضع يقول :

« ربما يتوهم ناظر اننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة ، لـكن الحقيقة غير ذلك ، فاننى لا ازال أدافع عن الحجاب، واعتبره أصلا من أصول الآداب التى يلزم التمسك بها ، غير أننى أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الاسلامية ، وهو على ما فى تلك الشريعة يخالف ما تعارفه النـاس عنـــدنا ، لما عرض عليهم من حب المغالاة فى الاحتياط ، والمبالغة فيما يظنونه عملا بالأحكام ، حتى تجاوزوا حدود الشريعة واضروا بمنافع الأمة .

والذى أراه فى هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا فى اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معهـــا أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات ، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الانسانية، وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعى ، وهو الذى ادعو اليه .. » (٦٨) .

والحجاب الشرعى هو كشف المرأة وجهها وكفيها عند كل الفقهاء ، وأجزاء أخرى من بعض اطرافها الأخرى ، عند نفر منهم ، كما تحدث عن ذلك قاسم أمين .

وفى العمل : تدرج موقف قاسم أمين وترقى تبعـا لتطوره الفكرى ازاء تحرير المرأة .. وهو هنـا قد مر بمراحل ثلاث :

---

(٦٨) المصدر السابق • جـ ٢ ص ٤٣ •

١ - ففى البداية : وهى مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م كان يطلب تعليم المرأة ، ويطلب كـذلك أن تظل فى البيت ، خاصا بها ومختصة به ، وينتقد اشتغالها ، لا « بالوظائف العمومية » ، بل « وبالأعمال المدنية » التى يقوم بها الرجال ... وهو فى التعبير عن هذه الفكرة يقول :

« اننى لا أرى الفائدة التى يمكن أن تجنيها النساء بممارسة حرف الرجال ، بينما أرى كل ما سوف يفقدنه ، فان هذه الحرف سوف تجرفهن عن المهام التى يبدو انهن خلقن من أجلها ، كما ان هذه الاعمال لن تجعلهن اكثر فائدة للمجتمع ، ولن تزيد من سحرهن ، بل على العكس من ذلك . ان مشهد الأم المتفانية يملؤنى حنانا ، كما يحرك سرورى منظر الزوجة التى تعنى ببيتها ، فى حين أنى لا أشعر بأية عاطفة حين أرى امرأة تهل على فى خطى الرجال ، ممسكة كتابا فى يدها ، وتهز ذراعى فى عنف ، وهى تصيح بى : « كيف حالك يا عزيزى ؟ » بل لعلى اشعر بشىء غير بعيد عن النفور .

هل السيدات المؤلفـات والسياسيات - (ولست اتحدث الا عمن اتخذن حرفة الأدب وتجارته) - هل هن حقيقة نساء ؟ وما هى أوجه الشبه بين هذه الكائنات اللاتى رأين كل شىء ، وقرأن كل شىء ، وفعلن كل شىء ، واللاتى لم تعد وجوههن تحمر ، وبين تلك الملائكة اللاتى ما يكدن يرسلن نظرة أو لفظة أو لمسة كف حتى تبتل عيوننا بالدمع وتفعم قلوبنا بالنشوة ؟! .

اننى أحتقر ادعاء النساء وتحذلقهن ، ولكننى نصير متحمس لأخذ المرأة قدرا نسبيا من التعليم . اننى أنعى تربية النساء المصريات وسط الجهل المطلق ، يجب أن

تعرف المراة دائما ما يكفى لكى تلقن ابناءها مبـادىء الأخلاق والفضيلة ، ولتقدم لهم شرحا علميا للأشياء التى تحيط بهم ، يجب أن تعرف دائما كيف تجيب ، دون أن تخطىء ، على تساؤلات الطفولة التى لا تنقطع .. (٦٩) .

٢ ــ وفى المرحلة الثـانية : مرحلة كتـاب « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ، يبقى قاسم امين على موقفه الرافض تولى المرأة « الوظائف العمومية » ، ولكنه يتطور خطوة فيطلب لها أن تمارس ، مثل الرجل « جميع الأعمال المدنية » .. علاوة على شئونها الخاصة .. ويعبر عن موقفه الجديد هذا بقوله :

« أن الناظر فى الأحوال التى فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة ، مثل الخلافة والامامة ، والشهادة فى بعض الأحوال ، لا يجد واحدة منهـا تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها ، وان الشارع لم يراع فى هـذه المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها فى العائلة ، وحصر الوظائف العمـومية فى الرجال ، وهو تقسيم طبيعى جرى على مقتضاه ، الى الآن ، التمدن فى أوروبا ــ (لم تـكن المرأة الأوروبية قد نالت حقوقها السياسية بعد) ــ ولا يوجد فيه شىء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها الى أعلى مرتبة تستحقها ، وما من عاقل يدرك الفرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التى خولتها الشريعة الاسلامية الى المرأة فى جميع الأعمال المدنية ــ ومنهـا اهليتها لأن تكون وصية على رجل ــ يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التى تؤدى الى حرمان

(٦٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق » .. (٧٠) .

وقاسم أمين يرى أهلية المرأة المصرية ، اذا تعلمت ، لاجادة كل « الاعمال المدنية » التى تجيدها المرأة الغربية .. كما يرى فى ذلك عاملا هاما ينمى ثروة المجتمع ويدفع بتطوره الى الأمام ، فالمرأة عندنا طاقة معطلة واستثمار غير مستغل ، بل لقــد أصبحت عالة على ثمرة عمل الرجال .. « فلأن النساء ، فى كل بلد ، يقدرن بنصف سكانه ، على الأقل ، فبقاؤهن فى الجهــل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى .

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل ، مثــل الغربية ، بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجــارة والصناعة ، الا جهلها واهمال تربيتها . ولو أخذ بيدها الى مجتمع الاحياء ، ووجهت عزيمتها الى مجاراتهم فى الأعمال الحيوية ، واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفسا حية فعـــالة تنتج بقــدر ما تستهلك ، لا كما هى اليوم عالة لا تعيش الا بعمل غيرها ، ولــكان ذلك خيرا لوطنها ، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه .. » (٧١) .

٢ ـ وفى المرحلة الثالثة : من تطوره الفكرى، ازاء هذه القضية ، مرحلة « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م ، يبقى قاسم أمين على موقفه من قضية اشتغال المرأة « بالأشغال العمومية والوظائف العامة » أى العمل السياسى ووظائفه العليا ، ولكنه يتقدم فكريا عن ذى قبل ، عندما يعلل للفروق القائمة بين الجنسين ، والتى أهلت الرجل ، دون

(٧٠) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٨٢ .
(٧١) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٠ ، ٢١ .

المراة ، لهذه الوظائف السياسية العليا ، فبعد ان كان يرى ذلك تقسيما فطريا وابديا للعمل ، نشأ عن طبيعة كل جنس من الجنسين ، أصبح يراه ثمرة لتأهل الرجل ومرانه ، وهو الأمر الذى حرمت منه المراة وابعدت عنه قرونا طويلة ، ومن ثم يعلق صلاح دخولها هذه الميادين على اكتسابها هذه المؤهلات وذلك المران ، وهما فى الامكان ، ولذلك فهو يرى ان حرمانها من هذه الوظائف السياسية العليا هو أمر مؤقت سيزول بزوال ما له من أسباب .. أما عبارته المعبرة عن فكرته هذه ، فهى التى يقول فيها :

« انى ما طلبت ولا أطلب المساواة بين المرأة والرجل فى شىء من المزايا والحقوق السياسية ، لا لأنى أعتقد ان الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية ، حجرا عاما مؤبدا ، هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعى ، بل لأنى أرى اننا لا نزال الى الآن فى احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية ، وان المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشىء مطلقا ، ويلزمها أن تقضى أعواما فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ الى مسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية .. » (٧٢) .

هكذا رأى قاسم أمين قضية « عمل المرأة » .. وهكذا تطور فكره ازاءها ما بين سنة ١٨٩٤ م وسنة ١٩٠٠ م .

***

والآن .. لقد آن الأوان لنسأل هذا السؤال :

أية امرأة تلك التى ركز قاسم أمين حديثه عنها ؟؟ .

وبنت أية طبقة من طبقات الامة تلك التي سعي لتحريرها ؟؟ .

---

(٧٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٦١ .

لقد سبق لنا واثبتنا ان قاسم أمين كان داعية مصلحا يبشر بقيم المجتمع البورجوازى ، ويدعو لفتح الطريق أمام مصر كى تتطور فتخلف عصر الاقطاع وراءها وتدخل الى رحاب التنوير البورجوازى ... والآن نقول : ان المرأة التى شغلت قضايا تحريرها عقل قاسم أمين ، هى ، فى الأساس ، المرأة البورجوازية ، امرأة الطبقة التى كان ينتمى اليها ، بنت الطبقة الوسطى ، التى كانت متميزة عن بنات الارستقراطية الاقطاعية وكبار الملاك الذين يغلب عليهم الانتماء التركى والشركسى والانتساب لعناصر المتمصرين .. والتى كانت متميزة كذلك عن بنـــــات الفلاحين .

ولم يكن اهتمام قاسم أمين بنساء الطبقة الوســطى تعصبا لطبقته الاجتماعية ، ولا انغلاقا على عالم خاص به من الناحية الاجتماعية ، فهو بالتأكيد مصلح كان ينظر للأمة ككل ، وان غلبت عليه رؤية لونها انتماؤه الاجتماعى .. ولكن مبعث هذا الاهتمام انه لم يكن يعلق أية آمال على نساء الارستقراطية الزراعية ، فهن مثل طبقتهن غرباء عن روح هذه الأمة وقضاياها المصيرية ، يعشن كطبقتهن على هامش هذا المجتمع ، ولا صلة بينهما الا صلة الاستغلال الاقطـــاعى واستنزاف ريع الأرض من الفلاح .

أما المرأة الفلاحة والتاجرة والممارسة لحرفة من الحرف .. فلقد رآها قاسم أمين عضوا عاملا فى المجتمع وطاقة منتجة .. صحيح انها لا تقرأ ولا تكتب .. صحيح انها غير « متعلمة » .. ولكن انخراطها فى الحياة العامة مع الرجل ، وفى مساواة له ، قد جعلها « مثقفة » بالخبرة

والتجربة ، فهي ليست قيدا على تطور المجتمع الى الأمام ، وان تكن لديها طاقات اخرى كامنة يستطيع التعليم أن يطلقها من عقالها .. ان بينها وبين الرجل ، فى طبقتها ، مساواة الى حد كبير ! .

أما امرأة الطبقة الوسطى فانها كانت موضع أمل ، بل عليها ـ مثل طبقتها ـ تعلق الكثير من الآمال فى قيادة نهضة الأمة وتطورها .. ومع ذلك فهي وان « تعلمت » الا أنها بمقاييس « الثقافة » دون امرأة الريف والحرفيين والتجار ـ فهى الطاقة المعطلة حقا وتماما من بين النساء اللاتي تتعلق بهن آمال المصلحين ... ومن ثم فان اتخاذ قضية تحريرها محورا لقضية تحرير المرأة عموما هو أمر له ما يبرره ، خصوصا من مصلح مثل قاسم أمين .

ونحن نستطيع أن نتأكد من صدق تحليلنا هذا اذا قرأنا بعض عبارات قاسم أمين .

فهو فى المقارنة بين امرأة الطبقة الوسطى والمرأة الفلاحة يقول : « تساوت النساء عندنا فى الجهل مساواة غير محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن الا فى الملبس والحلى . بل يمكن أن يقال : انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر زاد جهلها ، وان آخر طبقة من نساء الأمة ، وهى التى تسكن الأرياف ، هى أكملهن عقلا ، بنسبة حالها .

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح ، مداركهما فى مستوى واحد ، لا يزيد احدهما عن الآخر تقريبا . مع أننا نرى المرأة فى هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ، ولم تتبعهم نساؤهم فى هذه الحركة ، بل وقفن فى الطريق . وهذا الاختلاف هو أكبر سبب فى شقاء الرجل والمرأة معا » (٧٣) .

(٧٣) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٢٥ .

ثم يعرض لذات القضية ، وهو يتحدث عن «الحجاب»، فيقول :

« واذا أراد القارىء أن يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب ، على وجه لا يبقي للريب معه مجال ، فما عليه الا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات فى المدن لم يسبق لها تعليم ، فانه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلعب « البيانو » ، ولكنها جاهلة بأطوار الحياة ، بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها ، وان الثانية ، مع جهلها ، قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوى والحوادث التى مرت عليها ، وان كل ذلك قد أفادها اختبارا عظيما ، فاذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى ! » (٧٤) .

فالتعليم لبنت الطبقة الوسطى لم يفدها الثقافة والمعارف والخبرات .. بينما اكتسبت الفلاحة والتاجرة الثقافة والمعارف والخبرات الخاصة بالحياة من العمل .. وما ذلك الا لأن الأولى تعيش مجتمعا انفصاليا عزلها فيه الحجاب عن مصدر المعرفة الحقة ، بينما تساوت الثانية مع رجل طبقتها ، فخاضا معا غمار الحياة .

***

تلك هى أفكار قاسم أمين عن مشاكل المرأة الشرقية .. وآراؤه فى اصلاح أمرها .

وهذه هى المرأة التى من أجلها أطلق صيحة النهضة والتحرير .

(٧٤) المصدر السابق . ج ٢ ص ٥٧ .

فى التمدن الإسلامى

(يجب أن نرجع الى التمدن الاسلامى القديم ، لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ما كان فيه ، بل لانه يحتوى على كثير من اصول حالتنا الحاضرة •• لقد انتفعت به الانسانية ، واستكملت ما كان ناقصا منها فى بعض ادوارها •• ولكن كثيرا من ظواهره لا يمكن ان يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية •

ان علينا ان نزنه بميزان العقل ، ونتدبر فى أسباب ارتقاء الامة الاسلامية وأسباب انحطاطها ، ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا ان نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى ما يستقبل من الزمان •

وعلينا كذلك ان نربى أولادنا على ان يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على اصولها وفروعها وآثارها ••)

قاسم امين

نعنى « بالتمدن الاسلامى » ، هنـــــا ، تلك الآراء والنظرات التى ابداها قاسم أمين عندما عرض « للدين » الاسلامى ، و « الحضـــارة » الاسلامية ، وموقفه من القضية الهامة التى طرحت فى عصره عندما اختلف الناس فى الاجابة على سؤال : هل نعود ـ ونحن ننهض ونستيقظ ـ الى منابعنا الاسلامية نستوحيها ونحتذيها ؟ أم نجعل وطننا قطعـــة من أوروبا فـــكرا وقيما وحضارة وعلما وعملا ؟ .

وقاسم امين لم يكن مصلحا اسلاميا ، وخلفيته الفكرية الاسلامية لا تؤهله لأن يكون كاتبا اسلاميا فضلا عن ان يكون مصلحا اسلاميا .. بل ان طبيعته الخاصة وتكوينه الذاتى كانا ينأيان به عن أن يكون الـكاتب المتخصص والمهتم بأمور الدين ، ولـكنه كان ، مع ذلك ، غيــورا على الاسلام ، تستفزه حملات خصومه عليه تحت ستار الحملة على المسلمين ، أو حملات خصوم المسلمين عليهم تحت اعلام الحملة على الاسلام .. ولقد كانت هــذه البضاعة رائجة فى عصره ، لأنه كان يشهد المد الاستعمارى الأوروبى على الشرق ، وهو المد الذى استعان على الغزو ببعض أسلحة الغزوة الصليبية فى العصر الوسيط .

ولعل ذلك هو الذى جعل أغلب حديث قاسم أمين فى الاسلام ، ودفاعه عنه يأتى فى كتابه « المصريون » الذى رد به هجوم دوق داركور على مصر والمصريين المسلمين .. وفى هذا الكتاب يوضح قاسم أمين طبيعته ومزاجه حيال هذا المبحث ، فيقول :

« لست أحب الخوض فى حديث عن الدين ، لأسباب تتعلق بطبيعتى الخاصة ، وبحرصي على مراعاة اللياقة العامة ، غير ان على فى هذه المرة أن افعل ما أكره ، لأن موضوع الدين قد سيطر على جميع أجزاء كتاب داركور ، بل اننى لأكاد أعتقد انه هو الذى كان حافزا على وضع كتابه ، ولهذا فانى استأذنه فى أن أخصص له بدورى عدة سطور » (٧٥) .

ونحن اذا ذهبنا نطالع آراء قاسم أمين ونظراته الاسلامية فاننا نستطيع ، فى نهاية المطاف ، أن نخرج بحصيلة يمكن بلورتها فى عدد من النظرات والتقييمات ، منها ما هو صائب ومنها ما جاوزه الصواب .

١ ـ فهناك ذلك التقييم الذى قدمه قاسم أمين لشخصية الانسان المسلم ومكوناته الذاتية ومزاجه الحضارى ، وهو تقييم نختلف معه فيه ، ونراه قدتخلى، وهو يخطه ، عن عنصر هام من عناصر منهجه الاجتماعى .. فهو فى المنهج يؤمن بوحدة القوانين التى تحكم التطور فى الظواهر الطبيعية والاجتماعية والانسانية ، ويؤكد ـ كما سبق وعرضنا ـ على أن القوانين التى حكمت وحتمت تطور المجتمعات الأوروبية ورقيها لابد لها وأن تفعل فعلها عندنا نحن الشرقيين .. ولكنه فى نظراته الاسلامية سلك سبيلا مناقضا لمعطيات هذا

(٧٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٦ .

المنهج فتراه يقدم للشخصية الاسلامية صورة تتبدى لها فيها قسمات خاصة تجعلها عصية على التقدم والتطور والارتقاء ، وتجعل منها نسيجا انسانيا مختلفا اختلافا جذريا عن غيرها من الشخصيات ، فالأمر هنا يتعدى التمايز النابع من اختلاف الشخصية القومية الى ما هو أدخل فى التغاير « الطبيعى » بين المسلم وغير المسلم .

والذى نعتقده سببا فى ذلك ، هو ان قاسم أمين قد جعل ما هو « واقع » « طبيعى وأبدى » وليس « عارضا » يتغير ويتبدل بتغير الأسباب وتبدلها .

فهو ، مثلا يقول : « ان للمسلم أفكارا عن كل شىء تختلف عن أفكار الأوروبى عن هذه الأشياء ، حتى ان ما يلائم أحدهما لا يلائم الثانى الا نادرا » (٧٦) .

وانطلاقا من هذه المقولة يصور « شخصية المسلم » تصويرا يضع يدنا على ملامح « شخصية صوفية » متواكلة وانعزالية ، لا تربطها أية روابط بالواقع فى الحياة ، حتى ان أحدنا اذا ذهب يبحث عن ملامح هذه الصورة فى نفسه أو جيرانه ، بل وفى ذوات جماهير الناس فى عصر قاسم أمين ، فانه سيعود دون أن يجد لتلك الشخصية علاقة وثيقة بنا نحن جماهير المسلمين .. ويكفى لتبيان صدق قولنا هذا أن نقرأ تعريفه لشخصية المسلم، حيث يقول :

« المسلم : أولا لا ينتظر سعادته فى هذه الحياة ، ان له ، أيا كان فكره ، عالما خياليا تذهب اليه أحلامه طواعية ، ويفضله على الواقع مهما كان ساخرا ، فهو ، عامة ، لا يبالى كثيرا بكل ما يجتذب الأوروبى ويستحوذ على مشاعره . واذا كانت الأطعمة الفاخرة والعروض

(٧٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٥ .

السحرية الجذابة ، واللقاءات الجماعية الممتعة تحتل مكانا كبيرا فى حيـاة الغربيين ، فانهـا قليلة التاثير على وجدان المسلم .

وكما ان المسلم ، عامة ، لا يقدر السعادة التي يبحث غيره عنها فى هذا العالم ؛ فانه لا يؤمن بامكان تحققها على الارض ؛ ومن هنا يعتكف فى عالم احلامه التى تمثل له المتع الوحيدة الخالصة الجديرة بتشغل فكره ، عزوفا عن الثروة وألقاب التكريم ومنابع اللذة التى يعدها أشياء عابرة خادعة كأنما وجدت لتحرفه عن الطريق القويم ، وهذا ما يجعله يبدو جادا صموتا سوداوى المزاج .

وهو يخشى ممارسة الوظائف العامة خشية محاسبته على أعماله ومساءلته عن وسـائل الاداء ، ويهرب من العالم ، لأنه يعد اغراءاته حافلة بالمخاطر ، ولا يهوى كثرة الكسب حرصا على ضمان شرف الوسائل ، وهو فى الواقع يحمل احتقارا عميقا لهذا المعدن الخسيس — (الذهب — النقد) — ولعله لهذا ينفقه دون ندم ، وقد ضاعت ثروات كثيرة من المسـلمين فى اندفاعهم لنجدة اخوانهم ، فهل هناك دليل أكبر من هذا على ازدرائهم للنقود ؟ .. واذا كان كثير من المسـلمين يقترضون بالربا ، فلست أعرف مسلما واحدا يقرض ويأخذ ربا على ذلك . ولعل الشيء الذى لا يكاد يصدق هو انه لا يرى فى اللذة الجنسية الا اشباعا سـفيها لاحدى الحاجات الجسدية ، حتى ان فنون الهوى التى أبدعها العشاق العباقرة ، والتى يهتم بهـا الغربيون ، لا تحدث اثرا فى نفوس المسلمين الانقياء ! » (٧٧) .

هكذا صور قاسم « الشخصية العامة » « لعامة »

(٧٧) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

المسلمين .. وهى صورة أقل ما يقال فى نقدها : انها اخذت ما هو جزئى ونادر وشاذ فجعلته عاما وصورته على أنه القسمات الأساسية للشخصية الاسلامية ، ومن هنا جاءت أشبه ما تكون بصورة يرسمها « سائح » عابر سبيل ، رغم انها قد جاءت فى كتاب يرد به قاسم على « سائح » وينتقد فيه منهج « السائحين » فى رسم الصور وتأليف المعلومات وتأليف الكتب عن المواطن التى فيها يسيحون ! .

٢ ـ اما الاسلام ، كدين ، فان فهم قاسم أمين له كان فهما بسيطا وجيدا فى ذات الوقت .. فهو يرى أن الكثير مما أضيف الى الدين ، بمرور العصور ، الدين منه برىء ، فالجانب « الدينى » فى « الحضارة الاسلامية » محدود ومحدد ، لأن الاسلام ، كدين ، عند قاسم أمين ، هو حركة اصلاح للمسيحية وتقويم لانحرافات وتحريفات الديانات التى سبقته الى الظهور ، وبعبارته هو : « يستطيع المتأمل المنصف أن يرى أن مهمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت دينية بأقل مما كانت سياسية، فمن وجهة النظر الدينية البحتة ، أراد النبى ، ببساطة ، اصلاح المسيحية ، بانقاذ وحدانية الله التى غرقت فى الثالوث الغامض والعصى على التفسير ، كما أراد ادانة الخرافات السوقية والأشكال الرمزية المستعارة من الوثنية الرومانية والاغريقية » (٧٨) .

هكذا ، ببساطة وعمق ، الاسلام كدين .

وعلى الذين يلتمسون هذا الدين البسيط أن يذهبوا الى مصدره الأوثق : القرآن ، ثم الى قلة من الأحاديث الصحيحة التى تجمع عدة شروط : شرط الصحة رواية

---

(٧٨) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٩٩ .

.. وشرط تعلقها بأمور الدين ، بأن تكون تفسيرا لمجمل في القرآن مثلا .. وشرط موافقتها لمنطق القرآن وروح آياته .. اما ما عدا ذلك من الاحاديث ، حتى ما صح منها ولكن كان موضوعه الأخلاق أو شئون الدنيا ، فهو ليس من الدين .. ذلك « ان أقوال النبى لا تشكل جزءا من الدين ، ومن الطبيعى أن ننحى من هذه الاقوال تلك المحادثات الأليفة والنصائح الخلقية ، والحكم الفلسفية التى تتضمن ، دون شك ، نصائح قيمة ، ولكنها لا تشكل التزامات وواجبات دينية .. كما يجب أن ننحى ايضا كل ما ليس له علاقة بالفقه والتشريع . وتبقى بعد ذلك الأحاديث القليلة التى تفسر أو تكمل التوجيهات التى يتضمنها القرآن الكريم ، والتى لا تعد جزءا من الدين الا بعد تحقق جاد من روايتها عنه أو بملاحظة تطابقها مع نص القرآن أو روحه .. » (٧٩) .

وبسبب من بساطة هذا الدين كانت سماحته مع العلم والعلماء ، حتى من اختلف مع أصوله ومعطياته ، اذ « لم يحدث فى أية لحظة من تاريخ ديننا الاسلامى ان ثارت حرب ضد العلم ، وقد عانى من أشد النظريات مادية ، فلم يسىء أبدا معاملة واحد من العلماء ، وقد اذن لكل المعتقدات ان تحيا جنبا الى جنب » (٨٠) .

ومن هنا ، ولهذا الفهم المستنير الذى فهم به قاسم امين الدين الاسلامى ، كانت اشارته الهامة الى تلك الامكانيات الغير محدودة المفتوحة أمام انتشار الاسلام فى أوروبا .. فالنهضة والاستنارة والعقلانية التى سادت وتسود المجتمعات الأوروبية لا يتلاءم مع اهلها الا دين

---

(٧٩) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٢٦ .
(٨٠) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٢٥ .

يتميز بهذه البساطة والعقلانية والبعد عن الخرافة والاقتصاد فى الغيبيات .. وهذا الدين هو الاسلام .

ولقد كان قاسم أمين ، برأيه هذا ، يشارك عددا من المستشرقين والأوروبيين الذين دخلوا الاسلام ، وآخرين منهم لم يسلموا ولكنهم رأوا ان الاصلاح الدينى البروتستانتى هو استعارة واستفادة جزئية من روح الاسلام وتعاليمه ، وان خط سير أوروبا نحو المزيد من الاستنارة والعقلانية سيدفع بمستنيريها شيئا فشيئا الى الاسلام .

أما عباراته التى صاغ فيها فكرته هذه فهى التى تقول :

« اننى أبعد ما أكون عن التعصب ، غير اننى أعتقد ان الاسلام هو أفضل راية يمكن أن تجمع حولها البشرية كلها متحدة فى عقيدة واحدة ، ذلك ان الاسلام ببساطته ، وباختفاء الصوفية من نصوصه ، وبايجابيته الخلقية ، وامكان تلاؤمه ببساطة أصيلة مع كل التطورات، وبتسامحه الكبير الذى يتميز به ، يجمع ، فى رأيى ، مؤهلات تكفى لترشيح نفسه ليكون دين العالم كله . وذلك هو ما أعتقد انه الحلم الذى كان يطمح اليه القرآن ، والذى أوشك أن يتحقق فى احدى اللحظات ، ذلك انه دين الفطرة فى شكله البسيط ، المؤهل لارضاء الجزء الأعظم من البشرية التى لا تستطيع ، رغم كل شىء ، أن تقبل الحياة دون أن يعشش فى وجدانها أمل خيالى رائع ! (٨١) ... ان الاسلام الذى ظل طويلا يمثل القوة والنور فى العالم كله ، ما يزال يملك ذخيرة ثقافية وعظمة خلقية تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المحطومة ، وان يعيد ايقاد

(٨١) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٢٨ .

الشعلات المنطفئة ! .. » (٨٢) .

هذا عن الاسلام كدين .

٣ ـ ويدرك قاسم أمين كيف شوه الواقع البائس تلك الصورة الجميلة لحقيقة دين الاسلام .. وهذا الواقع البائس يتمثل عنده فى « الفقهاء ورجال الدين » .

صحيح ان الاسلام ليس به « سلطة دينية » ، ومن ثم فليس به ما يسمى « رجل الدين » ، وكما يقول : « فاننا لا نملك هذه المؤسسة الهائلة المهيبة التى تسمى الكنيسة ، وليس هناك شىء يمثل السلطة الدينية وسطنا . ان كل مسلم هو نفسه سلطان روحه . وليس لعلمائنا أو شيوخنا أية شخصية عامة أو دينية ، وليس لهم من السلطة الا ما نعترف به نحن لمعارفهم » (٨٣) .

ولكن هذا المبدأ الاسلامى الجوهرى الرائع شىء والتطبيق الواقعى شىء آخر ، فكما قلدنا الأمم والديانات الأخرى فى أمور كثيرة ، قلدناهم فى ظهور فئة من «علماء» الدين ، امتهنوا الدين مهنة ، فتحولوا ، عمليا الى « رجال » دين ! .. ثم كان لهم ، تاريخيا ، الدور المعوق للتقدم الحضارى للمسلمين كما يقول قاسم أمين مصورا الدور السلبى الذى لعبه نفر من الفقهاء فى تاريخنا الحضارى .. « فلقد أسست المدنية الاسلامية على الأساس الدينى والأساس العلمى .. ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضروبا من الظنون لا يؤيد أكثرها بشىء من التجارب ، كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت مراقبتهم ، وزجوا بأنفسهم فى

---

(٨٢) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٣٨ .

(٨٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٦٠ .

المسائل العلمية ، وانتقدوها ... وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه . وانتهى بهم الحال الى الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطلة الا العلوم الدينية ، بل غلوا فى دينهم وشطوا فى رأيهم حتى قالوا فى العلوم الدينية نفسها انها لابد أن تقف عند حد لا يجوز لاحد أن يتجاوزه ، فقرروا أن ما وضعه بعض الفقهاء هو الحق الأبدى الذى لا يجوز لاحد أن يخالفه ! » (٨٤) .

واذا كان التطور قد أصاب الكثير من مناحى حياتنا منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وفعل فعله فى عدد عديد من الدوائر الفكرية ، فلقد ظل التخلف والجمود طابع الكثير من فقهائنا وشيوخنا ومذهب مراكز التوجيه الدينى الرسمية .. وقاسم أمين يصور عالم بعض هؤلاء الشيوخ والفقهاء عندما يقول :

« ... ذلك هو الحال الذى تردى فيه بعض شيوخنا ، الذين كان عليهم ان يقدموا لنا وصفا تفصيليا عن السماء والجنة والنار توحى لنا دقته بالايمان بمعرفتهم لها معرفة حقيقية ، بينما هم يجهلون كل شىء عن الارض ! .. وليس فى هذا ما يثير الدهشة ، ذلك انهم بدلا من ان ينظروا الى العلم السماوى بوصفه قمة جميع العلوم ، نجدهم لايجمعون المعارف الأولية التى يعيها تلميذ المدرسة الابتدائية ، ولا يوسعون ابدا نطاق دراساتهم ، ولذلك فان هؤلاء الشيوخ هم كتب رائعة ناطقة ، لكنهم فقدوا منذ وقت طويل ملكة التحليل والتعليم ، وهؤلاء الجهلة هم الذين يدعون فهم الفلسفة الدينية وقدرتهم على تفسيرها ، وينصبون من انفسهم حماة الرسالة النبوية ،

(٨٤) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٠٤ .

ويدعون السهر على حفظ الدين وعلى نقـــائه وحسن تطبيقه .. ان هؤلاء ليسوا الا ادعياء شديدى الوقاحة ، يخنعون الذكاء ويحولون بين الفكر وبين البحث ، ويدسون الوصايا الزائفة ، ويبتكرون الحيل للافلات من قسم او التحرر من أحد الواجبات الدينية ... اننى اعلن ، مع ذلك ، ضرورة ادخال اصلاح محــدد يتمثل فى تزويد المرشحين للدراسات الدينية بمعــارف منطقية وعلمية ، حتى يستطيعوا بوســاطة التعليم ان ينتزعوا من عقول بعض المسلمين جميع المعتقدات السيئة التى تهدد بخنق الدين ، وان يرشدوهم الى طريق العــودة الى بساطة قواعد الاسلام الخمسة ، فقد كانت وحدها كفيلة بنشر الاسلام فى جميع ارجاء العالم ، وما نزال وحدها قادرة على انقاذه من كارثة مدمرة .. » (٨٥) .

٤ ــ اما الحضارة الاسلامية ، وبالذات التنظيم السياسى فى هذه الحضارة ، فلقد اختلف ازاءه موقف قاسم امين ، او تغير وتطور فى تقييمه لهذا الجانب من جوانبها .. ولقد كان تعرضه لهذا الجانب الهام يأتى بمناسبة الحديث عن صلاح هذه الحضارة التاريخية كبديل للتخلف وايضا كبديل للأخذ بالنمط الأوروبى الذى جاء الى الشرق فى ركاب الغزاة ! .

فنحن نلمح قاسم أمين فى مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م يميل الى وجود « تنظيم ونظام سياسى اسلامى » ، كقسمة فى حضارتنا الاسلامية ، وهو يرجع ازدهار المسلمين وحضارتهم الى تطابق نظامهم السياسى مع تعاليم دينهم ، فلما أهملوا تعــاليم الدين انهار كل البناء .. فالعيب هنا ، كما يراه ، ليس فى النظامات

(٨٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨

السياسية .. فهو يقرر « ان المسلمين عرفوا العظمة حين كان لهم تنظيم سياسى اسلامى ، وخاصه حين كانت حياتهم وسلوكهم متطابقتين مع الأخـــلاقيات والوصايا الاسلامية التى بدات مأساتهم يوم ابتعدوا عنها . ولو كان لى أن أحدد أسباب تخلف العالم الاسلامى لوضعت اهمال تنفيذ التعاليم الدينية على رأس العوامل الهـامة لذلك .. » (٨٦) .

ولـكنه يرجع عن هذا الراى فى مرحلة كتابيه « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م و « المراة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م فينكر أن يكون المسلمون قد عرفوا النظامات السياسيه أصلا فى مجتمعاتهم وتاريخهم ، ويرجع انهيار حضارتهم وشيوع الاستبداد بالمراة فى تاريخهم الى افتقادهم هـذه النظامات .. فيقول مثلا :

« تجردت الجمعيات الاسلامية ـ (اى المجتمعات) ـ على اختلاف الأزمان والأماكن من النظامات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم ، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحـــدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام ، بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائما .. وأساء حكامها فى التصرف .. بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة ، ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يـكاد يذكر بالنسبة الى غالبيتهم .. » (٨٧) .

ثم يعود الى تقرير الفكرة فى مرحلة تالية ومكان آخر فيقول :

« .. وأما من جهة النظامات السياسية ، فاننا مهما دققنا البحث فى التاريخ ـ (الاسلامى) ـ لا نجد عند

(٨٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٦ .
(٨٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٦ .

اهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاما ، فـان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد ، يحكم موظفين غير مقيدين ... ربما يقال : ان هذا الخليفة كان يولى بعد أن بايعه أفراد الأمة ، وان هذا يدل على ان سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر .

ونحن لا ننكر هذا ، ولكن هذه السلطة التى لا يتمتع بها الشعب الا بضع دقائق هى سلطة لفظية ، أما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر .

ومن الغريب ان المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية ، ولم يتوصلوا الى ما وصلت اليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتهـا ، فقـد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم فى ادارة شئونها .

واغرب من هذا ان أمراء المسلمين وفقهائهم لم يفكروا فى وضع قانون يبين الأعمال التى وجدوا انها تستحق العقاب ويحددوا العقوبات عليها ، بل تركوا حق التعذير الى الحاكم يتصرف فيه كيف يشـــاء ، مع ان بيـان الجرائم وعقابها هو من أوليات أصول العدالة .

ولست محتاجا ان أقول : انهم ما كانوا يعرفون شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ... فاذا كانت حالتهم السياسية هى كما ترى فما الذى يطلب منا أن نستعيره منها ؟! » (٨٨) .

ونحن نعتقد ان هذا التقييم الذى اعطاه قاسم أمين لقسمة النظامات السياسية فى حضارتنا هو تقييم ظالم

---

(٨٨) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

وغريب قد جانب صاحبه الصواب .. كما نعتقد أن أهم الأسباب التى تكمن وراء ذلك هى :

أ ــ انه لم يفرق ويميز بين « الحضـــــارة » وبين « التاريخ » .. ففى حضارتنا فكر سياسى ، وضع قواعد للشورى ، وأشار الى هيئات تنهض بمهام اختيار الحاكم والرقابة عليه ، وحدد قواعد الفصل بين السلطات ، وأعطى توصيفا وتحديدا رائعا للجرائم والعقوبات .

ويكفى أن ندل على خطأ قاسم أمين ، هنا ، وهو ينفى أن يكون المسلمون قد وضعوا قانونا يحــــدد الجرائم والعقوبات ؛ بما قاله هو نفسه عن هذا القانون وعن الفقه الاسلامى ، عندما أشار فى كتاب « المصريون » الى أصالة هذا الفقـــه ، ووصفه بأنه « أعظم نصب اقامة العقل البشرى » ونفى أن يكون منقولا عن القانون الرومانى ، وأكد « انه يستمد أصالته من آيات القرآن وأحاديث الرسول » (٨٩) .

لكن قاسم أمين نظر فى « التاريخ » ، والتاريخ السياسى بالذات ، فوجد قسمة الاستبداد الفردى بالحكم تغطى المساحات الشاسعة من قرون الحكم الاسلامى والبـلاد الاسلامية ، ثم هو لم يميز بين تراث هذه الأمة الحضارى وابداعها فى السياسة والنظم السياسية والتشريع وبين حيلولة النظم الاستبدادية بين هذه النظم وبين التطبيق .

ب ــ لم يلتفت قاسم أمين الى دراسة الحركات الفكرية والتيارات الثورية وأحزاب المعارضة التى استمرت طوال عصور التاريخ الاسلامى تجاهد كى تضع فى التطبيق ثمرات اجتهاد هذه الأمة الفكرى فى القانون والشورى والعدل الاجتماعى .. ولو انه التفت الى دراسة هــذه

(٨٩) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣١٩ .

القسمة لرأى أشياء أخرى مشرقة تقف الى جانب ظلمات الحكم الاستبدادى الذى عرفه هذا التاريخ .

ج ـ وأخيرا .. فلو أتيحت له فرصة الاطلاع على تراث هذه الأمة فى الفكر الاقتصادى ، وما كتبه علماؤها فى (الأموال والخراج) لرأى جذورا عميقة لأكثر النظريات الحديثة جنوحا نحو العدل والانصاف ، ولما قال : ان المسلمين « لم يعرفوا شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ! » .

بل لو قد أطلع على قوائم عناوين تراثنا فى الفكر السياسى والاقتصادى ـ قوائم العناوين فقط ـ لتردد قبل أن يصدر هذه الأحكام ؟! .

٥ ـ أما قسمة « الفكر الاجتماعى » فى الحضارة الاسلامية والتمدن الاسلامى فان قاسم أمين يعجب بها كل الاعجاب ، كما ان رؤيته لها تستحق هى الأخرى منا التقدير والاعجاب .

فهو يرى ان الاسلام يتميز بالانحياز الى « نوع من الجماعية » و «الاشتراكية» قد أقامه على رفض «الفردية» التى اشعلت بغضاء الصراع الطبقى فى المجتمعات الأوروبية ، وعلى استبدال هذه « الفردية » بتقرير « اشتراك » الفقراء فى الأموال التى هى فى حوزة الأغنياء .. وبسبب من هذه الفلسفة التى هى محور الموقف الاجتماعى للاسلام فان « العمل » هو المعيار الوحيد للكسب والحيازة والدخل الاقتصادى ، وان الشعار ـ الاشتراكى ـ القائل : « من كل حسب عمله » ، هو شعار اسلامى تماما ومقبول من المسلمين بالتأكيد .. وبسبب من هذه الفلسفة أيضا فان الاسلام يرفض الحواجز الطبقية التى عرفتها وتعرفها المجتمعات التى

فرقتها الملكية والامتيازات الى طبقات ثابتة ، كما يرفض ان تكون الوراثة أو الثروة معيارا يحل محل العمل فى كسب الجاه و النفوذ .

« فالاسلام لم يعرف قط امتيازات الميلاد او الثروة . وقد سبق بهذا أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من ألف عام .. فليس من العدالة ان تكون صدفة الميلاد فى احدى البيئات مصدرا لوضع متميز .. لقد كان المبدأ القيم عند بعض الاقتصاديين ، والقائل : (من كل حسب عمله) وسيبقى ، دائما شعارنا ، اننا جميعا أبناء أعمالنا .. لقد نظم الاسلام توزيع الثروة ، وأعلن اشتراك الفقراء فى ملكية أموال الأغنياء . وهذا ـ كما هو واضح ـ حل للمشكلة الاجتماعية بواسطة نوع فريد من الجماعية .

أولا ترى فى مثل هذا الدستور ما يوفق بين المصالح ، وما يهدىء جميع الخواطر ؟ أليست هذه الاشتراكية أكثر سموا وأقرب الى الواقع العملى من تلك النظم التى تتحدث عنها أوروبا ، والتى يتجلى قصورها وصعوبة تنفيذها ؟ .. اننى أشهد فى أوروبا نفوسا حائرة ، وعقولا قلقة ، وصراعات بين الطبقات تتزايد حدتها ، فيرتعد الأغنياء ، ويصرخ الفقراء ، وتتراءى أعراض زلزال هائل رهيب .. ان أى مجتمع اسلامى لا يمكن أن يقوم الا على تنظيم ديمقراطى ، فهو ينهض على أساس فكرة المساواة والاخاء .. ولا يعبأ بآداب المجتمعات الشكلية ، فى أوروبا ، والتى تفصل بين الأغنياء والفقراء ، بين النبلاء والعامة . فالكل داخلٌ فى الكل ، وامتزاج الطبقات كاملٌ .

أو يمكن بعد أن يعرف الانسان كل ذلك ان يتذوق

شيئا آخر ويحبه ؟! » (٩٠) .

فهو هنا لا يسوى بين « جماعية الاسلام واشتراكيته » وبين نظيرهمـــا فى الفـكر الأوروبى ، بل يميز بينهما ، ويفضل المنطلق الاسلامى لتنظيم المجتمع على أساس من فلسفته ـ فلسفة الاسلام ـ فى هذا الميدان .

٦ ـ وأخيرا .. نأتى الى تلك النقطة الهامة فى فكر قاسم أمين عن « التمدن الاسلامى » .. والخـــاصة بالموقف من « نوع » الحضارة التى يدعو اليها قومه ، ويحبذ أن تكون طريقهم لتجاوز التخلف « المملوكى ـ العثمانى » ، ويشير باعتمادها نمطا للتقدم والتطور .

فمعلوم أن عصر قاسم أمين كان استمرارا لعصر اليقظة والنهضة والتجديد الذى بدأ منذ مطلع القرن التاسع عشر .. ومعلوم كذلك ان دعاة النهضة كانت تتوزعهم دعوتان أساسيتان :

الأولى : ترمى الى الأخذ بنمط الحضارة الغربية كاملا ، وتستهدف جعـل مصر ـ ومن ثم الشرق ـ قطعة من أوروبا .

والثانية : ترمى الى الاستفادة من « أدوات » النهضة والحضارة الأوروبية ، مع جعل منطلقاتنا عربية اسلامية ، وطابعنا عربيا اسلاميا ، وبناء حضـــارة عربية اسلامية معاصرة ومتطورة ، تتميز كثيرا عن حضارة الأوروبيين .

ولقد بدأ قاسم أمين ميالا ، وان يكن فى تردد شديد ، الى التيار الثانى ، ثم عاد فانخرط تماما فى سلك دعاة التيار الأول .

فهو فى مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م يقارن بين الحضارة الأوروبية وبين الحضارة الاسلامية ، ثم

(٩٠) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢ .

يحكم بأن الظفر انما هو من نصيب الحضارة الاسلامية الأصيلة .. يقول : انه « اذا كانت توجد اليوم حضارة اسلامية خالصة الى جانب الحضارة الأوروبية ، فان الأصالة هى الظافرة ! » (٩١) .

ثم يعود فيتردد فى الاختيار بين الحضارتين ، وخاصة عندما يكون المقام خاصا بالحديث عن « الاختبارات » والبدائل المطروحة أمام النهضة المصرية .. يتردد ، ولكنه ينبه الى أن مصر قد اختارت ، بالفعل ، النمط الأوروبى ، وان العودة عنه تكاد تدخل فى عداد المستحيلات .. ذلك ان امام مصر « طريقان : العودة الى تقاليد الاسلام ، أو محاكاة أوروبا . وقد اختارت الطريق الثانى .

وليس على ان أحكم على جدارة هذا الاختيار . لقد مضت فى اثر حركة الحضارة الأوروبية التى تجتاح كل مكان ، والتى تبدو استحالة مقاومتها .. انها قد خطت اليوم بعيدا فى هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه ، أن مصر تتحول الى بلد أوروبى بطريقة تثير الدهشة ، وقد أخذت ادارتها وابنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوروبى ، انها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا أو تفعله ، وتجد كل الأفكار التى تحرك حماس أوروبا صداها هنا » .. (٩٢) .

وفى مرحلة كتاب « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م يحسم قاسم أمين هذا التردد ، وذلك عندما يقرر ان التمدن الاسلامي ليس فيه ، حضاريا ، ما يصلح للعطاء المعاصر ، وان دراستنا له يجب أن تستهدف الدراسة

---

(٩١) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٥ .
(٩٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٦٣ .

التاريخية ، للتقييم ، وكشف الجذور ، والاستفادة من الأخطاء حتى لا تتكرر .. اما طريق اليوم والغد فلا علاقة له بهذا النمط الحضاري الذي ساد في تلك العصور .. يقول :

« انه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الاسلامي ويقف على ظواهره وخفاياه ، لأنه يحتوي على كثير من اصول حالتنا الحاضرة ، ويجب عليه أن يعجب به لأنه عمل انتفعت به الانسانية وكملت به ما كان ناقصا منها في بعض أدوارها ، ولكن كثيرا من ظواهر هذا التمدن لا يمكن أن يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية ... يجب علينا أن نلتفت الى التمدن الاسلامي القديم ، ونرجع اليه، ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذي مثال ما كان فيه سواء بسواء ، بل لكي نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر في أسباب ارتقاء الأمة الاسلامية وأسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفي ما يستقبل من الزمان .. » .

ثم يزيد الأمر وضوحا عندما يقول :

« ان تمسكنا بالماضي الى هذا الحد هو من الأهواء التي يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها ، لأنه ميل يجرنا الى التدني والتقهقر ، ولا يوجد سبب في بقاء هذا الميل في نفوسنا الا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن انشاء حالة خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا ، فهو صورة من صور الاتكال على الغير ، كأن كلامنا يناجي نفسه قائلا لها : اتركي الفكر والعمل والعناء، واستريحي فليس في الامكان أن نأتي بأبدع مما كان ؟ .

هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر الى علاجه ، وليس

له من دواء الا أن نربى أولادنا على أن يعرفوا شـــئون المدنية الغربية ويقفوا على أصلها و فروعهاوآثارها!»(٩٣).

***

تلك هى أفكار قاسم أمين ونظراته فيما سماه « التمدن الاسلامى » .. وهى أفكار ونظريات جمعت بين ما هو خطأ وما هو صواب ، وشهد بعضها تطورا من الصواب الى الخطأ أو من الخطأ الى الصواب ! .

(٩٣) المصدر الســابق . ج ٢ ص ٢٠٥ . ٢٠٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ .

مصـــــر..
والمصـــرية..
والمصـــريون

(ان المصريين ـ مسلمين واقباطا ـ ينتمون الى جنس واحد .. والمصرى لا يرهب الموت ولا الآلام ، غير انه يحتمل بعض الاهانات ، لان السلطة افقـدته وعيه حتى ظن انه مخلوق لمعـاناة نزواتها !.. انه لا تنقصه القوة الجسدية ، ولا الطاقة المعنوية .. ان ما يحتاج اليه هو النهوض والتوجيه السليم لـكى يصبح قوة عظمى ..

وليس يباح لانسان يحترم نفسه ان يخجل مـن وطنه ، ولا أن يغضب عليه الا كما يغضب الولد من أبيه غضبا ممزوجا بالأسف والحنو ..)

قاسم امين

يؤمن قاسم أمين بأن المصريين شعب واحد متحد .. فليس بين مسلميه ومسيحييه فروق عرقية قديمة ، لأن المسلمين المصريين هم أقباط أسلموا وليسوا وافدين من شبه الجزيرة العربية كما يظن بعض السذج من الجاهلين أو سيئي النية ! .

وهو يؤمن كذلك ان اختلاف المصريين فى الدين لم يكن له تأثير فى يوم من الأيام على وحدتهم الوطنية الراسخة ، تلك الوحدة القائمة على قسمات الوطنية بمعناها الحديث والمصالح الوطنية الواحدة التى تجمعهم جميعا بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات .. فعنده أن « من المؤكد أن المصريين المسلمين الذين نراهم فى المدن ، وخاصة فى الريف ، ليسوا من نسل العرب ، وليسوا عربا الا باللغة والدين ، وتكفى ملاحظتهم للاقتناع بأنهم نفس النماذج القبطية ، واننى أومن ـ وهو ما تؤكده الملاحظة أيضا ـ ان المسلمين المصريين ليسوا الا أقباطا اعتنقوا الدين الاسلامى .

ويشكل المسلمون والأقباط ـ رغم اختلاف الدين ـ كلا متناسقا يتحدث نفس اللغة ، ويرتدى نفس الثياب ، ويمارس نفس العادات . ولم يحدث قط منذ بدأوا

يعيشون معا جنبا الى جنب أن وقع بينهم خلاف جاد . لقد ربطت المآسي المشتركة بينهم بعاطفة وطنية ، جعلتهم يرتفعون بمصلحة الجماعة فوق الاختلافات الدينية ، ويكفي أن نذكر هؤلاء الذين يتمنون فصم وحدتنا ، بأن الأقباط أثناء ثورة عرابي كانوا يسيرون مع المسلمين يدا في يد ، وانه لم يطف بخيال مسلم أيامها أن يحرك القلق في قلب قبطي ، بينما وصف المسلمون الأتراك والشركس بأنهم أعداء مصر ! » (٩٤) .

فنحن هنا بازاء شعب واحد ، تربط أبناءه جميعا روابط الوطنية بمعناها الحديث .

وقاسم أمين يدرك دور النهضة الحديثة التي شهدتها مصر منذ حكم محمد علي في تكوين هذا « الوطن » المصري الحديث .. ففي ظل هذه النهضة قامت « الدولة المدنية » الحديثة ، وبرزت « حقوق المواطنة » لكل المصريين كرباط يعلو على غيره من الروابط الاعتقادية .. وفي ظلها كذلك أطلق العنان ، الى حد كبير ، لملكات الانسان المصري فأبدع وأثبت جدارته بميراثه الحضاري العريق في كل الميادين .. وبسبب كل ذلك عرف الانسان المصري معنى الافتخار الوطني والاعتزاز بالوطن ، مما جعله يقارن نفسه ووطنه بأرقى الأوطان دون أن تحول عقد النقص بينه وبين الاعتزاز بما له من طاقات وما أحرز ويحرز من انجازات .

« .. فيوم تشكل الوطن المصري ، أو وطن المصريين على يد محمد علي الطيبة ، لم يبخل المصريون بدمهم في سبيل أن يضفوا على وطنهم أروع بريق ممكن .. أن المصري ليس جبانا البتة ، وانه لا يرهب الموت

---

(٩٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ولا الآلام ، غير أنه يحتمل بعض الاهانات ، لأن السلطة أفقدته وعيه ، حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها . انه لا تنقصه القوة الجسدية ، كما لا تعوزه الطاقة المعنوية ، ان ما يحتاج اليه هو النهوض ، والتوجيه السليم لكى يصبح قوة عظمى » (٩٥) .

وان تلك الاهانات والمظالم التى توقعها السلطة الجائرة بالانسان المصرى ، يجب – فى رأى قاسم أمين – ان لا تجعل آثارها السلبية عيوننا وبصائرنا تضل وتزيغ عن ادراك الجوهر الحقيقى والرائع لذلك الانسان المصرى الأصيل .. فلقد يستخفى هذا الجوهر تحت مظاهر الفقر والآلام ، ولكنه أبدا لا يغيب ولا يذوب ولا يزول .. « صحيح أننا ما نزال نعرف شقاء كبيرا فى ريفنا ، فالفلاحون والأطفال يعيشون فى حالة حرمان من النظافة وفى املاق مثير للشفقة .. غير انه تحت هذه القشرة من وحل الفقر يتجلى الجسد نظيفا دائما ، بفضل الوضوء خمس مرات كل يوم ، وغالبا ما تشمخ فوق هذا الجسد – كما تشمخ الزهرة – رأس ذكية ! » (٩٦) .

ولقد دعت هذه النظرة الموضوعية والرؤية العميقة قاسم أمين الى أن يدعو قومه الى التمييز ما بين النقد الموجه للواقع بهدف اصلاحه وتطويره ، وما بين ذلك النقد الهادف الى الاستعلاء على الوطن والبراءة من الانتساب الى « المصرية » .. فقال قولته الرائعة :

« انه لا يباح لانسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه ،

---

(٩٥) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٩٦) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٦ .

ولا ان يغضب عليه الا كما يغضب الولد من أبيه غضبا ممزوجا بالأسف والحنو ! » .

وهذا « الغضب » يعنى عنده ان ننهض نحن « بانتقاد عيوبنا بنفسنا ، وعدم اخفاء شيء منها ، حتى لا نغفل عن تلافيها ، اذ ذلك أولى من ان يلقيها يوما فى وجهنا عدو لنا ! » (٩٧) .

أما هؤلاء الذين يتخذون سبيل الاستعلاء على الوطن وأهله : محتجين بأن لهم أصولا ـ تركية أو عربية ـ غير مصرية فان قاسم أمين يسخر منهم ويهاجمهم ، ويراهم خارجين على الواجب الذى يقتضى احترام جـوهريات القومية وقسماتها الاساسية .. يقول : ذلك « لأن أهم شيء يحفظ الأمم ويزيد رفعة شأنهـا هو احترام جملة امورها الجوهرية الأساسية ، مثل : الدين ، والوطن ، والسلطة العمومية ، والعائلة ، والعلم ، والفضيلة ، وكل عمل شريف أو جميل أو نافع ...

ونحن معـاشر المصريين ، ويا للأسف ! ، لا نحترم وطننا ، ولا نعرفه، وكثيرا ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن أن يعرفوه كوطن لهم بحال من الأحوال . وفاتنا ان كل عيب منسوب له هو منسوب فى الحقيقة لنا ، حتى ان كلمة (فلاح) ، التى كان الأتراك يستعملونها فى مقام الذم عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصرى ، اتخذها المصريون عنوانا على احتقار بعضهم بعضا .

ومن هذا القبيل أيضا نرى بعض الأشخاص الذين ولدوا فى هذه الديار من آباء ولدوا فيها ، بعد أن ترك أجدادهم بلادهم ، ولم يبق لهم أمل فى العـودة اليها ،

(٩٧) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٢٤ .

يجتهدون دائما أن يثبتوا انهم من أصل تركى أو سورى أو عربى ، ولا يكادون يعترفون ـ وخصوصا امام الأجانب ـ انهم من أبناء البلاد التى يرتعون فى خيراتها ويعيشون من نعيمها .

وبديهى أن المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر أحد على تبرئة نفسه من الانتساب اليه كما يدفع المتهم نسبة الجناية اليه عنه ! » (٩٨) .

وهذا الحس المصرى الصادق الذى تميز به قاسم أمين ، لا تجد فيه شائبة تشير الى أصله التركى ـ كما هو واضح من عباراته السالفة ـ بل انه يؤكد ان التعلق « بالتركية والأتراك » هو محض وهم ، لان العناصر التركية التى استقرت بمصر قد ذبل دورها ، وفقدت دورها المستقل فى المجتمع ، « فهذا الجنس قد انكمش الآن ، أو ذاب فى المصريين » (٩٩) .

كما ان هذا الحس الوطنى الصادق لم يجعله يتخذ الموقف « المتعصب » الذى ينكر مزايا الآخرين .. فهو يذكر لبعض الأوروبيين الذين خدموا مصر ، فضلهم فى تنوير أهلها وخدمة مرافقها ومشاركتها السراء والضراء (١٠٠) .

ويذكر للأتراك ـ رغم مأساة احتلالهم للبلاد وظلمهم لأهلها ـ ما استفادته منهم « الأمة المصرية » ، فلقد « وجدت فيهم انسانية راقية ، فاقتبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة : النظافة ، وترتيب المسكن ، والتفنن فى

---

(٩٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٩٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٨ .
(١٠٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٨ .

الملبس والمأكل ، وكثيرا من العادات الحسنة والصفات الأدبية .. » .

ويلفت النظر الى ظـاهرة تفضيل المصريين الزواج من التركيات ، ويرجعه الى نظـافة المرأة التركية وذكائهـا وكفاءتها كزوجة (١٠١) .

وكما وجه نقده لنفر من المصريين المنحدرين من أصول غير مصرية ، والى نفر من الأوروبيين الذين كان همهم الأول « جمع الثروات في أسرع وقت ممكن والرحيل بها بعد ذلك » عن مصر ، دون أن « تجتذبهم الحركات العلمية والأدبية » تراه كذلك قد تنبه للدور « الطفيلي » الذي قام به اليهود في استنزاف ثروة الوطن دون أن يضيفوا اليه انتاجا يوازي ما يحصلونه من أرباح ، فيقول عنهم : ان « اليهود يشكلون أكثر أجزاء السكان ـ (في مصر) ـ اسـتفادة ، فهم ـ عدا استثناءات قليلة ـ لا ينتجون شيئا ، ويجنون مع ذلك أرباحا كثيرة » (١٠٢) .

وهو بذلك يدرك وينبه الى حقيقة انهم انما يهتمون بالـكسب من المهن « الوسـيطة » و « السمسرة » و « العمولات » ، ولا يقبلون على المخـاطرة بتوظيف أموالهم في مشاريع الانتاج .

***

وبسبب من ذلك المفهوم الحديث الذي أعطاه قاسم أمين لمصطلح « الوطنية » .. ولتحديده أن الوطن المصري قد تكونت لأهله خصائص المواطنة وعلائقها في ظل النهضة الحديثة التي أقامتها تجربة محمد علي .. لكل ذلك كان

(١٠١) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٦٦ .
(١٠٢) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٨ .

لتقييمه لهذه التجربة أمرا يستحق منا القـــاء بعض الأضواء .

ويزيد ذلك الأمر أهمية ان قاسم أمين هو واحد من مدرسة الامام محمد عبده الفكرية ، ولقد كانت لمحمد عبده آراء فى محمـد على وتجربته شوهت الكثير من ايجابيات تلك التجربة ، بسبب ذلك الصراع الذى قام بين الأستاذ الامام وتياره الفكرى وبين الخديوى عباس حلمى والأسرة الحاكمة .. ومع ذلك فان قاسم أمين قد قيم تجربة محمد على تقييما ايجابيا ، وكان منصفا فى عرض منجزاتها الوطنية كل الانصاف .

فهو يرى فيها المرحلة التـاريخية التى ظهر فيهـا « الوطن المصرى الحديث » .. والمناخ الصالح الذى أظهر الطاقات الحضارية الكامنة للعنصر الوطنى المصرى .. ويرى فى القسمة الاستبدادية وحكم الفـرد الذى ظل يمارسه محمد على السلبية الأساسية التى شابت روعة هذه التجربة الحضارية .

ثم هو يفرق ويميز بين تجربة مصر فى عهد محمد على ، وبين ما أصاب هذه التجربة ، بعده ، على يد خلفائه الذين فرطوا فى الميراث الفنى الذى خلفه لهم مؤسس هذه التجربة .. وان كان لا ينسى أن يذكر للخـديوى اسماعيل فضله على التعليم والرى والانشاءات ، وانجازاته الشورية والدستورية ، وهو الفضل والانجـازات التى غطاها التبذير وما جره على مصر من ديون خلقت التكأة للأجنبى كى يطمع فى احتلال البلاد .

كما اســتطرد قاسم أمين ، فى تقييمه تجربة مصر الحديثة ، الى الحـديث عن الثورة العرابية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢ م) ، فرآها ـ وهو الاصلاحى الرافض للثورة

كطريق للتغيير - خطــأ دفع اليه تعجل الأمة تحقيق الاصلاح لطول عهدها بالظلم والاستبداد ! (١٠٣) .

انه ليكفى فى الدلالة على الموقف الايجابى ، لقاسم أمين ، فى تقييم فترة تأسيس مصر الحديثة هذه انه قد حكم بالادانة على كل فترات تاريخهــا ما بين عصر ازدهارها زمن الحكم العربى الزاهر ، وهذا العصر الذى قام فيه حكم محمد على .. وهو فى كل ذلك يقول :

« لقد استغلت مصر بواسطة وحوش ذات وجوه آدمية من كل البلاد ومن كل الأنواع .. فى الفترة الحـزينة الممتدة بين وضع مصر المتألق تحت حكم العرب وعصر النهضة الذى افتتحه محمد على . لقد أخذت السلطة منذ أيام محمد على تصبح أكثر انتظاما واعتدالا ، ففتحت المدارس ، وانتظم التجنيد فى الجيش ، وانشئت الأساطيل ، وتفتحت حياة جديدة أمام التجارة والصناعة والزراعة ، واخذت تتطـــور جميعا ، وحفرت القنوات ، وعبدت الطرق ، وفى كلمة واحدة : أقيمت حكومة حقيقية .

صحيح ان بعض أعمال العنف والابتزاز كانت ترتكب من آن لآخر ، غير ان الناس كانوا سريعى المغفرة لمحمد على ، وكانت الانجازات الطيبة التى يحققها والتى يريد تحقيقها تغفر له هفواته الصغيرة ، وكان ينظر اليه كوالد شديد القسوة ، لا يدرك الفارق بين التأديب واساءة المعاملة ! .

وخلال حكمه الطويل تهيأ المصريون لدراسة العـلوم والفنون ولحكم انفسهم بأنفسهم ، وكانت التجربة فى

---

(١٠٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

صالحهم ولخيرهم .. وقد أدهشوا العالم الذى ذهل وهو يراهم يحاربون بشجاعة وينتصرون ! .. (١٠٤) .

« ان مصر قد أيقظها ـ بعنف ـ من نعاسها الثقيل رجل عظيم منذ نصف قرن ، واذاقها رحيق العلوم ، فأخذت تتمثله فى نشوة ، ومن يومها وهى مقبلة على التعليم ، وقد أخذت تلمح مستقبلها المشرق ، وهى تتجه اليه فى خطى وئيدة ، ولكنها ثابتة ودؤوبة .. » (١٠٥) .

***

هكذا امتلأت مشاعر قاسم أمين بالحب لمصر ، وطنه الوحيد .. وهكذا كان تقييمه للفترة التاريخية التى نشأ فيها « الوطن » المصرى و « الوطنية » المصرية بمعناهما الحديث .. ولعل فى نصوصه الواضحة والحاسمة التى قدمناها هنا ما ينفى أية شبهات يحاول البعض القاءها على هذا الجانب من تفكيره .

---

(١٠٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٣ .
(١٠٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٣٨ .

في الوطنية

(ان التمدن الأوروبي يطأ بقدمه جميع انحاء المسكونة ، ويستولي على منابع الثروة فيها ، بقوة العقل او بالعنف ٠٠ واذا صادف أمة متوحشة أبادها او اجلاها عن ديارها ٠٠ واذا صادف امة كأمتنا ، لها نوع من المدنية ودين وشرائع واخلاق ، عاملها بالمعروف ٠٠٠ لكن لا يمضي زمن طويل حتى ترى هؤلاء القادمين قد وضعوا ايديهم على أهم اسباب الثروة ٠ ولا سبيل امامنا للنجاة الا ان نستعد لهذا القتال ، مستجمعين من القوة ما يساوي القوة التي تهاجمها ٠

ان امام مصر عقبة رهيبة هي اوروبا ٠٠ لقد حاربناها طويلا من اجل استعادة مكانتنا في العالم ٠٠)

قاسم أمين

كان قاسم امين واحدا من ابناء المدرسة السياسية التى تكونت من حول الامام محمد عبده .. يؤمن أبناؤها « بالاصلاح » طريقا للتقدم والتطور ، ويرفضون «الثورة» .. ويعلقون الآمال على « الصفوة المستنيرة » و « النخبة المختارة » وليس على « انعامة والجماهير » .. وهذه « الصفوة » عندهم معيارها « الاستنارة الفكرية » ، وليس الوضع الطبقى والثروة المالية والجاه الموروث .

وفى ظل الاحتلال البريطانى لمصر ، كانت هذه المدرسة تتعامل مع سلطاته كأمر واقع لابد لمن يريد « الاصلاح » أن يتعامل معها ويدخل واياها فى علاقات .. وبسبب من منهج « الاصلاح التدريجى » الذى اتبعته هذه المدرسة فانها لم تطرح قضية « الجلاء الفورى » للمحتل عن البلاد كشعار لها ، لأنها كانت تؤمن بأن « الصفوة » التى لابد منها لتسلم السلطة من المحتل لم تتكون بعد ، ومن ثم كانت ترى أن « الجلاء الفورى » ـ حتى مع افتراض تحققه ـ سينقل السلطة الكاملة الى الخديوى ـ وهم يناوؤن حكمه وأسرته الى حد ما ـ أو الى الدولة العثمانية ، وهم ضد عودة سلطانها الى مصر ، لأنهم يؤمنون بالوطنية المصرية والذاتية المصرية المستقلة ،

وبعضهم يؤمن « بالقـــومية » المصرية بالمعنى العصرى والحديث .

ومن هنا مثلت هذه المدرسة ، فى السياسة ، تيارا معتدلا .. تهادن مع الاحتلال وتعامل معــه ، على أمل الاستفادة من الوسائل الحديثة والاصلاحات العصرية التى أراد المحتل بتطبيقهـــا تحقيق مصـــالحه ، على أمل الاستفادة من هذه الوسائل والاصلاحات فى تكوين هــذه « الصفوة » المستنيرة ، ومناواة التيار الفكرى المتخلف والمتمسك بفكرية العصور « المملوكية ـ العثمانية » فى فهم الأدب والدين وتفسير ظواهر الحياة .

اى أن هذه المدرسة السياسية المعتدلة قد تميزت عن التيار الوطنى الداعى الى « الجلاء الفورى » .. وهو تيار مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م) والحزب الوطنى .. وهو الذى كان أكثر شعبية وأقرب الى « الثورية »، وأصدق فى التعبير عن الموقف الوطنى السليم .. كمـا تميزت كذلك عن فئة المستسلمين للاحتلال ، واليائسـين من حصول مصر على الاستقلال ، والمرتبطين بقوات الغزو وجهازه ارتباط التبعية والعمالة .

كان قاسم أمين واحدا من أبناء هذه المدرسة السياسية المعتدلة .. وان لم تكن السياسة ، بمعناها الشائع ، شغله الأول والأهم .

وهو يحدد بنفسه انه من فئة « المعتدلين » عند حديثه عن ضرورة قيام مجلس تشريعى نيابى حقيقى ، فيقول : لقد « باتت كثرة من المصريين المعتدلين ، وانا واحد منهم » تطلب قيام هذا المجلس ، ثم يضع تحفظ هــذه المدرسة المعتدلة فيقول : « غير اننا نود ، بالطبع ، نظاما

فيه الغلبة للمعرفة الواعية ، لا للكم العددى ! » (١٠٦) .

ولقد فرض هذا « الاعتدال » على هذه المدرسة أن ترفض أسلوب « الاثارة الثورية » الذى استخدمه مصطفى كامل فى بعث الروح الوطنية واذكائها فى نفوس المصريين .. فكان محمد عبده يصف خطب مصطفى كامل بأنها « نوبات صرع ! » .. كما نجد امتعاض قاسم أمين من كثرة الحديث عن « الوطنية » ، ودخوله فى كل شىء فى البلاد ، على حين ان ذلك ـ من وجهة نظره ـ ليس ضروريا لاثبات حبنا للوطن اليوم ، كما لم يكن ضروريا لاثبات حب الوطن عند الآباء والأجداد .. « فمنذا الذى ينكر على المصريين تقدمهم فى الاحساس الوطنى ؟.. عاش آباؤنا ، وتعلموا ، واشتغلوا بالصناعة والتجارة ، وخدموا أمتهم ، وفتحوا البلاد وحاربوا الأمم ، ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة . أما الآن فايما قرأت وفى أى مكان وجدت لا أسمع الا : حب الوطن ، والغيرة الوطنية ، والتفانى فى خدمة الوطن ، والجريدة الوطنية ، والمدرسة الوطنية، وحزب الوطن . والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التى تشغل وتبيع وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن دينا جديدا ، من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر ، صار كعصارة الطماطم يوضع فى كل شىء ليكسبه ذوقا حامضا يجعل تناوله سهلا مقبولا ؟! » (١٠٧) .

ونحن نود أن ننبه الى أن « خطأ » هذا الموقف « المعتدل » فى السياسة وفى الوطنية ، يجب أن لا يختلط

(١٠٦) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
(١٠٧) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

« بالخيانة » و « العمالة » للاستعمار ، كما يحلو للبعض أن يحكم على مصلحي هذه المدرسة الفكرية التي انتمى اليها قاسم أمين .. فهناك من الأدلة على « زيف » هذا الاتهام الكثير والكثير .. (١٠٨) ..

واذا كانت هذه الصفحات ليست بالمكان المناسب لتفصيل الموقف السياسي والوطني لهذه المدرسة ، فاننا نهتم بأن نشير هنا الى موقف قاسم أمين من الصراع الذي شهده عصره بين مصر وبين الاستعمار .

لقد أدرك قاسم أمين ، على نحو جيد ، ان بين مصر وبين أوروبا صراعا حضاريا ، ومن ثم وطنيا ، يضرب بجذوره في أعماق التاريخ ، وحدد ، على نحو ناضج وحاسم ، أن العقبة أمام تطور مصر ، وبلوغها المكان الطبيعي التي تأهلت له ، هي أوروبا !! .

« .. أن امام مصر عقبة رهيبة هي : أوروبا ! » ..

لقد أخذ تأثير أوروبا يتزايد في مصر منذ عهد سعيد — (١٨٥٤ — ١٨٦٣ م) حتى أصبح له في عصر اسماعيل — (١٨٦٣ — ١٨٧٩ م) — سيطرة حقيقية علينا ، اذ باتت كل أفعالنا ولفتاتنا خاضعة للأوامر الصادرة من مجالس وزراء باريس ولندن وبرلين ، وأضحى وزراؤنا يميلون مرة الى اليمين ، ومرة الى اليسار ، خاضعين دائما لأوروبا .. أن أوروبا استخدمت دائما هذه السيطرة ضد مصر ... ولقد آن الأوان لتدرك أوروبا ان المصريين قد عانوا وما يزالون يعانون بسببها ، وان العدالة تفرض عليها

(١٠٨) انظر الفصل الذي كتبناه في التقديم « للاعمال الكاملة للامام محمد عبده » تحت عنوان : « الاصلاح .. فالثورة .. فالاصلاح » . ج ١ ص ٣٣ — ١٠٠ طبعة بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، سنة ١٩٧٢ م .

واجب اصلاح ما أفسدته .. وفي انتظار الوقت الذي تعترف فيه بخطأ سياستها الماضية .. أسجل : ان أوروبا كانت العقبة الوحيدة الكبرى التي كنا نحاربها من أجل استعادة مكاننا في العالم ! .. » (١٠٩) .

هذا عن أوروبا ، بشكل اجمالي وعام ، أما انجلترا التي أصبحت المحتل الذي انفرد باستعمار مصر ، فان قاسم أمين يقف منها موقف « الناصح » لها بأن تأخذ بيد مصر ، وفاء « بالواجب » عليها ، ويعلق عليها «الآمال» في أن تساعد في تطور مصر الى الامام ، ويثني على ما تحقق في ظل احتلالها من « تقدم » في عدد من الميادين .. ولكنه يستنفر قومه الى النهوض ، محذرا اياهم من ترك بلادهم تنفرد بها فئات الاســـــتغلال والاستنزاف والنهب الاستعماري ، فهو « « يأمل » في الانجليز ، ولكنه يطلب « المشاركة » ، ويحدد أن قانون « البقاء للأقـوى والأصلح » هو الحكم في هذا الصراع بين المصريين وبين الاستعمار !! .

فهو يطلب « أن تحمل انجلترا مسئولية مستقبل مصر ، ما دامت تمسك مصيرها بين يديها » ويأمل ان لا يسمح « اخلاص انجلترا » بعودة « الفساد الدكتاتوري » مرة أخرى الى البلاد ، ويرى ان مصر « قـد بدأت تنتظم بالفعل في طريق الحضارة » (١١٠) وانه قـد أصبحت لديها « حكومة أمينة ومهيبة وذات مشاعر أبوية » (١١١) وأن مصر قد دخلت « عصر النظام والحرية » (١١٢) ..

---

(١٠٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤١ .
(١١٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٣٤ ، ٣٤٤ .
(١١١) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٤ .
(١١٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٥٥ .

ويحدد ان كل هذه الانجازات انما هي من فعل الأنجليز ؛ وان الكثير منها قد تم في وجه معارضة التيار المحافظ والجامد المناصر للقديم ، « فكل ما وجد في مصر من الحرية والنظام والعدل ، لم يوجد ولم يستمر الا بعمل الأجنبي ، وعلى رغم أهلها ! » (١١٣) .

ولكنه لا ينسى ان « يتحفظ » بعض التحفظ على ذلك الاسراف الذي يتجلى في تقييمه لدور الاستعمار في مصر ، وهو الاسراف الذي يجافي الحقيقة ، أو يعرض جانبا واحدا من جوانبها ، فيتساءل قائلا : لكن ، « هل يعني هذا ان لدينا حكومة كاملة ؟ وان كل شيء على أحسن ما يرام ؟؟ » — (وننبه الى ان الاجابة بنعم كانت موقف الفئة العميلة والمستسلمة) — ثم يجيب : « .. الحق ، أن لا .. فما يزال أمامنا عمل كبير ، وما يزال علينا أن نعيد تنظيم ادارة الأقاليم التى بقيت مأوى لعقلية النظام القديم .. انني أعلن حكومتي ، أيضا ، بالحاجة الى تمثيل وطني حقيقي ، وان يكن في صورة مبسطة ! » (١١٤) .

وبالطبع فنحن نؤمن بأن هذا الموقف « الوطني المعتدل » لم يكن هو أصح المواقف ولا أجداها في ذلك التاريخ .. ولكننا لا نود أن نظلم قاسم أمين اذا تركنا القارىء يتصور ان آماله في التقدم بمصر قد كانت معقودة فقط على اصلاحات الانجليز في ادارتها ومرافقها ، فلقد كانت آمال الرجل معلقة أيضا ، بل وبالدرجة الأولى ، على نهضة المصريين لدخول حلبة الصراع ضد الأجانب وانتزاع مواقعهم في بلادهم بجدارة ، والاستبسال في

---

(١١٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٨٠ .
(١١٤) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٧٥ .

سبيل الفوز فى هذا الصراع ، الذى حذرهم مغبة الاخفاق فيه .. انه يحدد جانبي الصورة كما رآها يومئذ، ايجابياتها التى دخلت الى الواقع المصرى ، والمخاطر المحدقة بأبناء البلاد وثرواتها ومصيرها .. فيقول :

« انى لا أجد فى ماضيها ـ « مصر » ـ عصرا انتشرت فيه المعارف ، وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنيه ، وانبث الامن والنظام فى أنحاء البلاد ، وتهيأت الاسباب للتقدم ، مثل العصر الذى نعيش فيه الآن .

ولكنها ، من جهة أخرى ، لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هى فى هذا الزمن ، فان تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء، حتى فاض من منبعه الى جميع أنحاء المسكونة .. وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه ، من زراعة وصناعة وتجارة .. وأن أضر بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين ، فانه انما يسعى الى السعادة .. يطلبها أنى وجدها ، وبأى طريقة يرى النجاح فيها ، وهو فى الغالب يستعمل قوه عقله ، فاذا دعت الحال الى العنف واستعمال القوة لجأ اليهما ... وهو لا يطلب الفخار والمجد .. بل المنفعة .. وتحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها .. فان صادفوا أمة متوحشة ابادوا أهلها واهلكوهم ، أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل فى أمريكا واستراليا ، وكما هو حاصل الآن فى افريقيا ... وان صادفوا أمة كأمتنا ، دخل فيها نوع من المدنية من قبل ، ولها ماض ودين وشرائع وأخلاق وعوائد وشىء من النظامات الابتدائية ، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم

وعاشروهم بالمعروف ، ولكن لا يمضى زمن طويل الا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على اهم أسباب الثروة .. وكلما تقدموا فى البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه « داروين » : قانون التزاحم فى الحياة .. فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا مندوحة عنها ، وهى ان تستعد الأمة لهذا القتال ! ، وتأخذ له اهبتها ، وتستجمع من القوة ما يساوى القوة التى تهاجمها من اى نوع كانت .. » (١١٥) .

فهو موقف « وطنى معتدل » ، اذا يبالغ فى تقييم انجازات الاستعمار الانجليزى فى مصر ، أو على الأقل يسلط الضوء أكثر من اللازم على بعض القسمات ، لا كل القسمات ... ولكنه يستنفز أمته « للقتال » دون ثرواتها وكنوزها التى هى الهدف الأول والأساسى فى هذا الصراع الضارى والتاريخى بينها وبين الأوروبيين .

وهو لذلك ، أيضا ، يدعو الى جعل « الاحساس الوطنى » أحد أسس ثلاثة لابد أن يقوم عليها نظام « التربية » عندنا .. ومعه : الأساس الدينى .. والوازع النفسى وتنمية الضمير .. (١١٦) .

***

وهناك حقيقة أخرى ، وأخيرة ، فى « الموقف الوطنى » لقاسم امين — تتعلق « بتطور » موقفه هذا فى سنوات حياته الأخيرة .. ذلك انه — مع آخرين من ابناء تلك المدرسة المعتدلة — قد شعروا بأن الاستعمار يستفيد من موقفهم هذا أكثر مما يتيح لهم ولآمالهم وأهدافهم

---

(١١٥) المصدر السابق . ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ .
(١١٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢١٥ — ٢١٧ .

الاستفادة من أسلوبه العصري وبرامجه في الاصلاح .. كما شعروا بأن عددا من اصـــــلاحاته التى كانوا قد استبشروا بها خيرا قد عادت وتعود نتائجهـا الايجابية للاستعمار ، ولم يبق منها للوطن سوى جوانبها السلبية ، فديون الأجانب ونفقات قوات الاحتــــلال ونمو ثروات التجار والمغامرين والمستثمرين الأوروبيين قد التهمت أغلب عوائد اصلاحات الرى والزراعة والرواج التجارى فى البلاد .. ولم يبق لأبناء الوطن الا الفتات ... وخلق فئة من الموظفين تخدم جهاز الدولة الجديد أصبح هو العائد الأساسى والثمرة المؤكدة لبرامج التعليم .. ولم تحدث اضافة حقيقية لمعارف الأمة وقدرات أبنائهـــــا العقلية ... بل لقد عاد الامام محمد عبده ، فى مرضه الأخير ، فأثنى على نظام التعليم الذى أقامه محمد على ، وفضله على اصلاحات الانجليز التعليمية ، بعد ان كان قد علق عليها الآمال (١١٧) .

وهذا التطور الذى نقول انه قد حدث فى « الموقف الوطنى » لقاسم أمين ، يتجلى لنا اذا نحن تذكرنا حديثه الذى سبق وأوردناه ، والذى انتقد فيه النمط الذى سلكه مصطفى كامل فى الدعوة الى الوطنية ، ثم قارناه بالعبارات الرائعة والعميقة التى ســطرها فى مذكراته عندما شيعت مصر جثمان الزعيم العظيم مصطفى كامل فى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م .. وهى العبارات التى يقول فيها قاسم أمين :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م .. يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب

---

(١١٧) « الأعمال الكاملة للامام محمد عبده » . دراســــة وتحقيق دكتور محمد عمارة . جـ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ . وجـ ٣ ص ١٧٠ ــ ١٧٢ .

مصر يخفق .. المرة الأولى كانت يوم تنفيـــذ حكم « دنشواى » .. لقد اتحد يومها شعور الناس .. ولكنه بقي مكتوما فى النفوس .. اما يوم الاحتفال بجنازه صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوه جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ، ووصل صدى دويها الى جميع انحاء القطر .

هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث ، الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها واعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجـــامدة البـاردة ، هو المستقبل ! » (١١٨) .

فنحن هنا نشعر ان قاسم أمين يبايع مصطفى كامل ومذهبه فى الوطنية ومسلكه فى البعث الوطنى ، وهو هنا يحيى هذا « الانفجار » الوطنى الهائل الذى جاء يبعث الدفء والحرارة فى « القلوب الجامدة الباردة » التى نأت عن مواقع الوطنيــة الثائرة ولهيب حرارة الحــركة الوطنية الجديدة .

وكما كانت خيبة الآمال فى اصلاحات المستعمر سببا فى ذلك التطور .. فلقد كان من أسبابه ــ كما نعتقد : تعاظم التيار الوطنى الذى قاده مصطفى كامل والحزب الوطنى .. وأيضا اخلاص هذا النفر من أبناء مدرسة الاعتدال الوطنى لقضية بلادهم ... ذلك الاخلاص الذى دفعهم لتطوير مواقفهم وتعديل مشاعرهم عندما لم يحقق لهم « الاعتــدال » ما أملوه لخــــير الوطن وتحـــرره من الاستعمار .

(١١٨) « الاعمال الكاملة لقاسم أمين » جـ ١ ص ١٨٣ .

أعماله الفكرية

(الأعمال الكاملة لقاسم أمين) التى جمعناها وحققناها وقدمنا لها بدراسة مستفيضة والتى قدمناها لقراء العربية ، سنة ١٩٧٦ م ، هى حلقة فى تلك السلسلة التى بدأنا اخراجها منذ سنة ١٩٦٨ م . سلسلة « الأعمال الكاملة » لاعلام عصر اليقظة العربية والبعث الحضارى الحديث لأمتنا العربية وفكرنا الاسلامى المستنير .

وفى هذه السلسلة ، صدرت :

١ ـ « الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى » .. ونحن نعيد طبعها الآن ، مرة أخرى ، كى تتضمن تلك النصوص التى اكتشفناها بعد صدور الطبعة الأولى ، وفى مقدمتها تلك النصوص التى كانت منسوبة ، خطأ ، للامام محمد عبده .. وهى نصوص ستجعل طبعتها الجديدة تأتى فى أربع مجلدات ، بعد ان كانت طبعتها الأولى فى مجلد واحد .

٢ ـ « الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى » .. ولقد صدرت طبعتها الثانية ، حاوية نصوصا ووثائق لم تنشر للكواكبى من قبل ، وحاوية كذلك التعديلات والاضافات التى أدخلها على كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » قبل وفاته .

٣ ـ « الاعمال الكاملة للامام محمد عبده » .. ولقد اكتمل صدورها بظهور جزئها السادس والأخير .. ونفدت طبعتها الأولى .. ويعاد الآن طبعها مع زيادات وتنقيحات.

٤ ـ « الأعمـــال الكاملة لرفاعة الطهطاوى » .. وصدورها يقترب الآن من الاكتمال .

٥ ـ « الأعمال الكاملة لعلى مبارك » .. ولقد صدر مجلدها الأول ..

فاعمال قاسم أمين ، اذا ، هى حلقة فى هذه السلسلة؛ التى نرجو لها النمو كى تضع بين يدى مفكرينا وباحثينا وقرائنا اثمرات العقلية الفذه والبارزة التى صنعت عصر نهضتنا الحديث ، والتى لا تزال فاعلة ، ومؤثرة فى حركتنا الفكرية حتى الآن. وهو انجاز نعلق على استمراره واكتماله اهمية كبرى ، لشدة حاجة حركتنا الفكرية اليه ، وحتى لا نكون بدعا بين الأمم المتحضرة والناهضة صاحبة التراث ، حيث تهتم معظمها بجمع آثار مفكريها الكبار ، وتحقيقها والتقديم لهـــا ، وتغيب من دائرة اهتمامنا هذه المهمة الأساسية ، رغم غناها الفكرى وشدة حاجتنا الى وصل خيوط تطورنا الثقافى وتأصيل القيم الفكرية المشرقة فى واقعنا الثقافى الذى نعيش فيه .

***

واذا كان لابد هنا من كلمات عن النصوص التى تكون « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » فاننا نقول : ان مفردات نصوص هذه الأعمال هى :

١ ـ « كلمات » .. وهى الخواطر واللمحات التى كتبها قاسم أمين فى « مفكرته الخاصة » ، والتى كانت بمثابة « مذكرات نفسية خاصة » .. كتبها لنفسه ، وأودعهـا

خلاصة مركزة لمجموعة من أفكاره ، صاغها فى أسلوب جاء غاية فى الرشاقة والجمال .

وكان قاسم أمين قد قرأ صفحات من هذه الـ « الكلمات » لصديقه أحمد لطفى السيد باشا (١٨٧٢ - ١٩٦٣ م) فلما توفى قاسم سعى لطفى السيد الى الأسرة ، بواسطة سعد زغلول باشا (١٨٦٠ - ١٩٢٧ م) حتى حصل عليها، وقام بمراجعتها مع محمد عاطف بركات (١٨٦١ - ١٩٢٤ م) ثم نشرتها جريدة لطفى السيد - « الجريدة » - سنة ١٩٠٨ م .

***

٢ - « أسباب ونتائج » .. وهى خمس عشرة مقالة نشرها قاسم أمين ، دون توقيع ، فى صحيفة الشيخ على يوسف « المؤيد » ما بين سنة ١٨٩٥ م وسنة ١٨٩٨ م .. مقدمة وأربع عشرة مقالة ، عالج فيها عددا من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التى تهم دعاة الاصلاح .

***

٣ - « أخلاق ومواعظ » .. وهى مثل « أسباب ونتائج » ، مقالات خمسة كتبها فى « المؤيد » فى نفس الفترة الزمنية - ١٨٩٥ - ١٨٩٨ م - دون توقيع ، وقصرها على علاج مشاكل « الموظف والوظيفة والتوظف » فى عصر كان التسابق فيه على العمل « الميرى » ظاهرة سلبية تحول بين خيرة الشباب وبين العمل المنتج ، وتنمى فى هذا الشباب أخلاقيات التواكل والارتزاق .

***

٤ - « المصريون .. رد على دوق دراكور » .. وهو

الكتاب الذى أصدره بالفرنسية قاسم امين سنة ١٨٩٤ م ردا على الكاتب الفرنسى « دوق داركور » الذى أصدر كتابا عن مصر والمصريين سنة ١٨٩٣ م امتلأ بالتهجم عليهم وحاول فيه الطعن على الاسلام والمسلمين .

ولقد قال قاسم أمين عن ملابسات كتابته لهذا الرد : « اننى حين قرأت كتاب دوق داركور مرضت عشرة أيام، وقد قلت ذلك لجميع أصدقائى ، قبل أن يرد على خاطرى فكرة الرد عليه . لقد وجدته بالغ القسوة ، وأحزننى انه حاول انتزاع جميع آمالى ، غير اننى أخذت استرد هدوئى شيئا فشيئا ، وبعدها شرعت أطيل التفكير فى كل ما كتبه عنا ، وتأملت جميع المشاكل التى وضعها وحلها ، وخلعت عنى صفتى المزدوجة ، كمصرى مسلم ، لأحلل الموقف فى حياد تام ودون انفعال أو تحيز ، ولم استرشد بغير الرغبة فى معرفة الحقيقة ، حتى أستطيع أن أعبر هنا عن عواطفى كما يفعله اجنبى يعرف عن مصر كل ما أعرف ، ويقيمها بطريقة محايدة » .

ولقد ظل هذا الكتاب الذى يمثل قسمة متميزة فى فكر قاسم امين ومرحلة فى تطوره الفكرى حيال بعض القضايا الهامة ، ظل بعيدا عن اللغة العربية ، حبيس أصله الفرنسى ، حتى تقديمنا له فى أعماله الكاملة .

ولقد كان ذلك سببا من أسباب مجىء أغلب الدراسات التى كتبت عن قاسم أمين غير وافية برسم ملامحه الفكرية المتكاملة ، وبعيدة عن أدراك تطوره الفكرى .. وهما الأمران اللذان تحققهما ، ضمن ما تحقق ، الدراسة التى قدمناها عنه هنا .

اما انجاز ترجمة هذا الكتاب فهو للصديق الأستاذ

محمد البخاری .. ولنـــا فيه التحقيقات والتعليقات والترجمة الموجزة لما ذكر في نصه من أسماء الاعلام .

***

٥ ــ « تحرير المرأة » .. وهو أكثر كتب قاسم امين شهرة وذيوعا .. بل أشهر كتاب عربي صدر في عصره .. صدر سنة ١٨٩٩ م فأثار أول معركة فكرية كبرى سببها كتاب منذ مطلع عصر نهضتنا في بداية القرن الماضي .

ولقد سبق لنا أن عرضنا ، ونحن نقدم للأعمال الكاملة للامام محمد عبده ، الى أن للأستاذ الامام دورا في تأليف هذا الـكتاب ، وقدمنا في ذلك المقام أدلتنا على ان رأى الشرع الاسلامي في قضـــايا : الحجاب ، والزواج ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ، الذي تضمنه « تحرير المرأة » هو للأستاذ الامام .

***

٦ ــ « المرأة الجديدة » .. وهو الكتاب الذي أصدره قاسم أمين سنة ١٩٠٠ م ، وركز فيه جهده للرد على الاعتراضات التي قدمت ، في الـكتب والرســـــائل والصحف والمجلات والمنتديات ، ضـــد كتابه « تحرير المرأة » .. كما ضمنه تطويرا أكثر جراءة في عدد من القضايا التي تناولها في « تحرير المرأة » في تواضع أو على استحياء .

***

٧ ــ « انشاء الجامعة » .. وهي كلمة لقاسم أمين خطبها في اجتماع من الاجتماعات التي عقــدت سنة ١٩٠٨ م للتحضير لانشاء الجامعة المصرية .. عرض فيها لأهمية التعليم الجامعي ودوره في خلق العلماء والمفكرين والمتخصصين .

٨ ـ « الامام محمد عبده » .. « أخـلاقه وفضائله وأمامته » .. وهو خطاب قاسم أمين الذى القاه فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٥ م باجتماع تأبين الأستاذ الامام، فى ذكرى مرور اربعين يوما على وفاته ، وفيه عرض لمكانة الامام ، ودوره فى الفـــكر العربى الاسلامى ، والمدرسة الفكرية التى تكونت من حوله .

تلك هى مفردات « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » .. وهى الأعمال التى جمعناها ، وحققناها ، وقدمنا بين يديها بدراسة مستفيضة عن حياته ، وفكره ، ومكانه من حركتنا الفكرية فى عصر نهضتنا الحديث .. ولقـــد صدرت طبعتها الأولى عن (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ببيروت سنة ١٩٧٦ م .. وهو جهد نرجو أن يكون قد حالفنا فيه توفيق واهب التوفيق .

كلمات

دونها قاسم امين في مفكرته الخاصة ...

فجاءت : اية من آيات الخواطر الصادقة مع النفس ..

ونموذجا راقيا للمذكرات التي يوحيها القلب وتسكبها العاطفة ..

وصورة من صور الشاعرية التي سطرها قلمه الرشيق ..)

● الحرية : (١١٩) .

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر .

***

● لا يغرنك المرتقى السهل اذا كان المنحدر وعرا .

● ان الذى مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك .

---

(١١٩) العناوين الفرعية التى وضعت لفقرات هذه « الكلمات » من انشائنا نحن وليست من وضع قاسم أمين .

● رب كلمة بتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها .

***

● اذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة ، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل فى مودتك .

***

● فى مصر : كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلا ، فاذا درس شيئا من العلم صار عالما مفضالا ، فاذا امتاز ببعض الحذق أو اظهاره عد من النوابغ .

● الايمان :

ليس الايمـــان مسألة عقلية أو علمية ، فانا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وانما الايمان مسألة شعور صرف ، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجا اليه الى حد انه يستحيل عليه أن يعيش بدونه .

***

● **بين العلم والدين :**

تعصب أهل الدين ، وغرور أهل العلم ، هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح انه يوجد بينهما خلاف حقيقى، لا فى الحال ولا فى الاستقبال، ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره ـ بعد كل اكتشاف يحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر، وفى نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغدا يشتغل عقـــل الانسان بالعلم ، أى بمعرفة الحوادث الثابتة ، ولا يمنعه ذلك من التفكر فى

المجهول الذى يحيط بها من كل طرف ، هذا المجهول الذى كان ويكون بعد الذى لا قرار له ولا حد لا فى الزمان ولا فى المكان هو دائرة اختصاص الدين .

***

● العشق :

لا شيء يشبه العشق فى عنفوان نشأته ، اذا هجم هذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق أمامه فوصل الى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة ، ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته ، فلا يقبل منافسا أو منازعا أو شريكا أو ضيفا بجانبه ، بل يستأثر وحده بالنفس فيلهيها عن شواغلها وينسيها حاجاتها ، ويفرق بينها وبين أميالها ، ويذهب همومها وأحزانها ، ولا يطمئن الا اذا قطعت العلاقات مع غيره ، وأصبحت كلها له كأنها ولدت معه فى يوم واحد وتفنى معه فى ساعة واحدة ، لاتعرف ماضيها ولا تبالى بمستقبلها ، فاذا تمكن منها على هذه الحال وقبض على زمامها رضيت بعجزها ، وشكرته على أسرها ، واغتبطت برقها ، ووجدت باتصالها بنفس أخرى قوة وفرحا وسعادة لم تر مثلها .

العاشق عنده ما يكفيه ، سماؤه صافية مهما تراكمت عليها السحب ، ومائدته فاخرة وان لم يكن عليها غير الخبز والملح ، تنتابه الحوادث ولا تترك به أثرا ، لأنه لا يعبأ بها ، سارة أو ضارة ، ويقاوم الحياة بجرأة عجيبة لأنه يشعر بأن فى جسمه روحين وفى صدره قلبين .

***

ان كان فى الوجود انسان يستحق أن يحسد على نعمته فهو العاشق .

كل عشق شريف . فان كان بين شريفين زاد فى قيمتهما ورفع من قدرهمـــا ، وان كان بين وضيعين اكسبهما شرفا وقتيا ، حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا الى أصلهما .

***

ليس ما يكتب على ابواب الأمكنة دائما صحيحا . فقد يكون بين سكان البيمارستان من هو أعقل من هذا الذى تراه سائرا فى الطريق متمتعا بحريته . كذلك بيوت المومسات قد تقفل أبوابها على نساء فيهن من هى أوفر حشمة وادبا وأكثر بعدا عن الشهوة من كثير من المخدرات اللاتى تنحنى الرؤوس أمامهن .

يشعر العاشق بلذة ساحرة اذا كان محبوبا ، واذا كان غير محبوب فيجـــد فى ألمه لذة أخرى مشابهة للسكر ، من تنبه فى الأعصاب وسرعة فى دورة الدم وانفعـالات شديدة فى النفس ، وبالاجمـال من زيادة محسوسة فى مبلغ الحياة ، كلاعب القمار يتمتع بارضاء شهوته فى الربح أو فى الخسـارة .

***

● من اختباري لأرباب الأفكار الذين اختلطت بهم يظهر لى ان الحمية عندهم سطحية لا تذكيها نار لتوقد في القلب ـ حمية ألفـــاظ متى انتشرت عادت هباء لا تترك أثرا بعدها .

● **الـكاتب :**

في الـكتب والجرائد والمجلات أرى الـكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء أكثر من عنايته بابداء فكره .

ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر أفكاره كما هى ، ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف مراعاة لأى أمر كان . هو العاشق الذى يعتقد الكمال فيما يحبه ولا يتصور وجود شىء يعادله ، ولا يبالى بذم الناس ، بل يجد فيه نوعا من حماسة الغضب منبها لأعصابه منشطا لقواه مغريا له على الاستمرار والثبات .

***

● كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل .

***

● بعد سن الأربعين يبتدىء العاقل يرى ان المطلق ليس له وجود ذاتى ، وان الثروات الجميلة التى نحبها ونقدمها كالخير والحق والعدل لا يمكن أن توجد فى الخارج الا مختلطة بنقيضاتها .

● الخطيئة :

لابد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هى العفو عن الخطيئة ـ العفو عن أكبر خطيئة ، العفو عن كل خطيئة .

هل المخطىء مسئول أو غير مسئول ؟ وما هى درجة مسئوليته ؟ مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها ، لكن حلها يكاد يكون محالا ، اذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التى تتركب منها الذات الانسانية بوجهيها : الأدبى ، والمادى ،

والقليل الذى يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الارادة على النفس محــدودة وخاضــعة لمؤثرات كثيرة شـــديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتهـــا على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل الى تقديره عقلنا ، وكل تاريخ الانسان فى الماضى يدل على انه لم يكن متولدا عن الحيـوان المفترس مباشرة فهو مشـــابه له فى شره وأطماعه وشهواته ، خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم ، خالق على أن تكون صـــحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضا موقتا .

فالخطيئة هى الشيء المعتاد الذى لا محل للاستغراب منه ، هى الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان ، هى الميراث الذى تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة وذاقا ثمرتها التى يتخيل لى انها كانت الذ من كل ما أبيح لهما . من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما ، وانتقلت منهمـا الى ذريتهما جيلا بعد جيل . ذلك هو الحمل الثقيل الذى تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقا الى الفضيلة العاجزة عن الحصول على اليسير منهـــا الا بمقاساة أصعب المجهودات ، حتى هذا النزر القليل لا سبيل الى بلوغه الا بتمرين طويل يتخلله حتما سقوط متكرر فى الخطيئة يكون منه الدرس المفيد لاتقائه فى المستقبل .

وأخيرا فان العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربمـا تنفع لاصلاح المذنب ، فقلما توجد طبيعة مهمـا كانت يابسة لا يمكن أن تلين اذا هى عولجت .

***

● أمر لا تدرى متى يفشاك لا يمنعك مانع من أن تستعد له قبل أن يفجأك .

● لا تصحبوا الأشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم .

***

● في اللغة :

لا أدرى ما هى غاية الكتاب الذين اذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم فى البحث عن كلمه عربية تقابل الكلمة الاجنبيه المصطلح عليها ، كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من كلمة الاوتوموبيل . ان كان المقصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الأجنبية التى اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطاوبة منها على وجه أتم من الكلمة العربية ، وان كان مقصدهم اثبات ان اللغه العربية لا تحتاج الى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم امرا مستحيلا . اذ لم توجد ولن توجد لغه مستقله عن غيرها مكتفية بنفسها .

يظهر ان باب الاجتهاد أغلق فى اللغة كما اقفل فى التشريع ، فقد صار من المقـــرر بيننا ان اللغة العربية وسعت وتسع كل شيء ! .

لـكي يكون هذا الاعتقاد صحيحا يجب أن نفرض ان هذه اللغة نتيجة معجزة ، فظهرت كاملة من يوم وجودها فى العالم ، وهذا يناقضه قيام الدليل على أن جميع اللغات خاضعة لقوانين التحول والرقى العام ، وتابعة فى أطوارها لسير الانسانية ، فهى اذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التى لا تزال تنتج وتبدع كما فعلت فى الماضى . ولا أدرى لماذا يريد قومنا أن يستعبدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة وطرق التعبير الجميلة التى نسمعها أحيانا فى لغة العامة بحجة انها لم ترد على لسان العرب .

نحن خلفاء العرب في لغتهم ، فكل ما تخترعه ملكاتنا في اللغة يعد عربيا بالطبع .

***

لم ار بين جميع من عرفتهم شخصيا الذى يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهانا كافيا على وجوب اصلاح اللغة العربية .

ني رأى في الاعراب أذكره هنا بوجه الاجمال ، وهو أن تبقى اواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل ، بهذه الطريقة ، وهى طريقة جميع اللغات الافرنجية واللغة التركيه ايضا ، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون أن يترتب عليه اخلال باللغة ، اذ تبقى مفرداتها كما هى .

في اللغات الأخرى يقرأ الانسان ليفهم ، اما في اللغة العربية فانه يفهم ليقرأ فاذا أراد ان يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف الثلاثة « ع ل م » يمكنه أن يقرأها علم (١٢٠) أو علم (١٢١) أو علم (١٢٢) أو علم (١٢٣) أو علم (١٢٤) أو علم (١٢٥) . ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه الطرق الا بعد أن يفهم معنى الجملة فهى التى تعين على النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون .

---

(١٢٠) بفتح العين وكسر اللام .
(١٢١) بضم العين وكسر اللام .
(١٢٢) بكسر العين اللام وسكون اللام .
(١٢٢) بكسر العين وسكون اللام .
(١٢٤) بفتح العين واللام المشددة.
(١٢٥) بضم العين وكسر اللام المشددة .

كان المؤلفون فى القرون ألوسطى هم ابن سينا (١٢٦) وابن رشد (١٢٧) وابن مسكويه (١٢٨) واضرابهم . كانت اللغة العربية لغة الأدب والعلم والفلسفة ، لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العـــالم ، ثم مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة الى الامام ، واللغات الأوروبية أخذت تتحـــول وترتقى كلما تقـدم أهلها فى الآداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والايضاح والدقة والحركة والرشاقة ـ صارت أنفس جوهرة فى تاج التمدن الحديث ..

رغما عن هذا قد أجمع قومنا على ان لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الأول ، ويزعمون انها سيدة اللغات ، كما أجمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا .

● الابتـــكار :

الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن أفكارهم فى ما يكتبون ، وانما فى عقولهم مخازن تحفظ ما يدخل فيها بالقراءة والســماع ، ومستودعات لأفكار غيرهم يتعاملون بهذه البضاعة التى ليست لهم ، ولا يضيفون أو يعلقون عليها شيئا من أنفسهم . كل عملهم محصور

---

(١٢٦) أبو علي الحسين بن عبدالله بن ســينا « ٩٨٠ ـ ١٠٣٦ م » فيلســوف وطبيب شهير فى التراث الاسلامى ، لقب بالشيخ الرئيس . وهو صاحب نزعه اشراقية فى الفلسفة .

(١٢٧) أبو الوليد بن أحمد بن رشد « ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م » فيلسوف قرطبة ، الشارح الاكبر لآثار ارسطو ، وأبرز فلاسفة التيار المشـــائى المسلمين .

(١٢٨) أبو علي الخازن « المتوفى سنة ١٠٣٠ م » فيلســـوف واديب ومؤرخ وعالم بالكيمياء . وله فى الاخلاق كتاب « تهذيب الاخلاق » وفى التاريخ « تجارب الامم » وغيرهما كثير .

ب تكرار افكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الاطفال قرآن ؛ فاذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صفقوا مدحوا وصاحوا !! فلان ما أخلاه ! علان ليس فى العالم ثله ! .

● طلب الحقيقة لذاتها :

طلب العلم عندنا وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق وظيفة ، أى لـكسب المال ، أما حب الحقيقة والاستغراق فى تحصيلها والشوق الى اكتشاف المجهـــول ومغالبـــة لصعوبة والاهتمام بترقية النفس ،وبالاجمال التعليم للتعلم فلا فائدة فيه ، والفائدة كل الفائدة فى هذا الذى لا فائدة فيه .

● صحافتنا :

اذا قرأت الجرائد تجدها جميعا متحدة فى موضوعها متشابهة فى تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين احداها والأخرى ، واذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول ، ولا تجد فى الجريدة التى تقرأها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيرا جديدا أو أسلوبا مبتدعا ، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه .

***

● يوجد عدة طرق للتعبير عن كل فكرة ، أحسنها طريقة واحدة : هى التى يجدها الكاتب المجيد .

● حدود الانسان :

عقل الانسان المحدود لا يسع غير المحدود ، وعلمه القليل لا يصل الى ادراك المجهول الذى لا نهاية له ، لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل فى عالم الظلام وسار كالأعمى يتخبط يمينا وشمالا ، لا فرق فى ذلك بين الغبى الجاهل والذكى العالم .

***

المقلد فى ايمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة فى عروة اللابس ، والمنكر مجـــازف جاوز حد العقل والعلم ، وابغض منهما من يخادع بدينه فيقول : ان كان الله غير موجود ما خسرت أكثر من غيرى وان كان موجودا ربحت مع الرابحين ، لذلك أومن به ! هذا هو المحتال الذى لا يصان أحد ـ حتى الاله ـ من نصبه .

● الاخلاق :

الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الانسان فى جميع أدوار حياته ، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية ، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمنا من السقوط يوما فى الرذيلة ، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به ائرذيلة الا وفيه استعداد لان يأتى يوما بأفضل الأعمال .

وحقيقة الأمر ان أخلاق الانسان ليست شيئا يتم دفعة واحدة ، وليس لها حد تقف عنده . انما هى فى تحليل وتركيب ، فى تكون مستمر ، يعتريها الانحلال زمنا وتعود بعده الى التماسك .

الانسان أسير الشهوات ما دام حيا ، وانما تختلف شهواته باختلاف سنه ، فشهوة اللعب عند الطفل ، وشهوة الحب عند الشاب ، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين ، وشهوة السلطة عند شيخ الستين ، جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا ، متى وقع فيها أحدنا يجب عليه الا يترك نفسه الى تصرفها ، ولا يستصعب الخلاص منها ، ولا ييأس من نفسه بل عليه ان يقاومها كما يقاوم المريض علته ، عليه أن يوجه ارادته الى مصارعتها والتغلب عليها ، عليه أن يحول فكره عن الأمس الذى كان فيه قبيحا وينظر الى غده الذى يكون فيه جميلا .

لا يطلب الكمال من المرء وانما يطلب منه أن يكون فى كل يوم أحسن منه فى اليوم الذى مضى .

فى ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش الا عند الرجل الذى حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوما مهاجما ويوما مدافعا ، كذلك الحال فى جهاد النفس لا تجد ثبات الجنان الا عند الرجل الذى عرض نفسه الى استهواء الشهوات وخدائع اللذات ، فاذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه التى هى الفضيلة الحقيقية ، خلافا للرجل الذى احتجب عن جواذب الشهوات فانه متى وجد امام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها الا قليلا ، واذا سلم فى نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها .

***

● بعد سن الأربعين كل زلة خطرة .

● عين الطماع حينما تبصر شيئا تشتهيه ، لها نظرة تحيط به وتحويه برمته وتحوزه وتفعل فى نفسك ما يفعله الاختطاف الحقيقى . هذه النظرة رأيتها كثيرا عند المعتاد لعب القمار .

***

● يوجد أناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص فى خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الاتقان المعهود .

***

● لا تكمل أخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه .

● **اصحاب النفوس الكبار :**

زارنى أشهر اديب يكتب الآن فى مصر باللغة العربية ، وكان فى يدى كتاب فرنسوى يشتمل على حكم ومواعظ موضوعه فى جمل مستقلة لا ارتباط بينها ، فقرأ فيه عبارة هذه ترجمتها : « انى أخشى ما أتمنى » . فقال : كيف يخشى الانسان الشيء الذى يتمناه ، فأجبته : كل انسان يخشى ما يكره ، وليس كل انسان يخشى ما يتمنى ، وانما هذه صفة يختص بها ذوو النفوس الممتازة ، وتكون سببا لشقائهم ، يرى الواحد منهم وردة جميلة فى البستان فيتمنى أن يقطفها ، ولكن يبعده عنها ما حولها من الشوك ، يشتهى تفاحة جميلة تعجبه بلونها البديع ورائحتها الزكية ، ولكنه يخشى الدودة الكبيرة التى ربما تصادف أسنانه وقت أن يعض عليها فيلقيها على الأرض وهو يشتهيها ، يلاقى المرأة التى كان يراها فى مخيلته مثال الجمال ، فيود أن يلقى نفسه تحت أقدامها ويعطيها

قلبه وحياته ، ولـكنه يخشى أن تكون كاذبة كغيرها ، يتمنى صديقا ويخشى أن يجده خائنا . يتمنى ... كل شيء ، ويخشى ان لا يجد فيه كل ما تخيله . وهكذا يقضي حياته بين الأمل والخوف من تحققه ، وتنتهي به الحال الى أن يرى ان السلامة في ترك الأماني .

***

● كل مباحثة مفيدة اذا كان الغرض منهـــا اظهار الحقيقة ، ولكنك لا تجد الا شــخصا يريد أن يعلمك ما ليس له به من علم ولا يصغي الى شيء مما تقوله لأنه ليس مشتغلا الا بما يقوله .

***

● الوحدة :

وجدت السآمة غالبا في الاجتماعات ، وما شعرت بها في الوحدة . اشتاق الى الناس فاذا اختلطت بهم رأيت وسمعت ما يزهدني فيهم فأفر منهم وارجع ملتجئا الى نفسي فأجد فيها الراحة والسكون .

● الصديق والعدو :

من الذي يحب صاحبه أو قريبه أو مواطنه أكثر ؟ أهو الذي يكشف الستار عن عيوبه ويظهـرها له كما هي ؟ أم الذي يغض البصر من نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه ليسره ؟ لا شك ان الأول هو الصديق المكروه والثاني هو العدو المحبوب .

● الرياء :

من الناس من اذا اراد أن يفعل الخير انتهز الوقت المناسب لاعلانه ، فاذا رأى شهودا وضع يده فى جيبه وأخرج كيسه وعد النقود ووضعها ببطء فى يد صاحبه بعد أن يراها الحاضرون ، ولكيلا يبقى عندهم شك فى مقدارها يقول لمن تفضل بمساعدته : خذ هذه الجنيهات العشرة ، فاذا خرج هذا المسكين التفت الى من حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر ، ثم كلما اجتمع فى نهاره بواحد من معارفه أوجد مناسبة ليقص عليه خبر هذا الحادث العظيم . هذا الرجل أراد فعل الخير لنفسه فاستعمل صاحب الحاجة وسيلة لذلك .

ومنهم من يريد فعل الخير فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه ويصغى الى شكواه ويشاركه فى ألمه ويحزن لحزنه ثم يبذل له من عبارات التسلية وكلمات النصح ما يقوى عزيمته ، فاذا قدم اليه مساعدة مادية دسها فى وسط الكلام والمحاورة وهو مضطرب خجل خائف أن يجرح احساسا شريفا . يحتال فى انتخاب طرق العرض ويعتذر عن عمله ، فاذا قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع فى ورطة ثم تخلص منها . ذلك هو المحسن الذى يعرف أن للنفس حياء يجب احترامه كما أن فى الجسم ما ينبغى غض النظر عنه .

فعل الخير حسن وأحسن منه ستره .

● التجارب :

اقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والأساتذة ، وأعظمها ما تعلمه بتجاربه الشخصية فى الأشياء والناس .

● فى الأمة الضعيفة المستعبدة حرف النفي (لا) قليل الاستعمال .

***

● العقوبة فى التربية :

من مروري فى المدارس والمكاتب أحفظ تذكارا ثابتا لا يزول أبدا ـ وهو الخوف من الضرب ـ فى الكتاب ضرب بالعصى على الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أى مكان آخر من الجسم ، وفى المدارس بالنيلة المزفتة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام ـ كنت أذهب الى محل التعليم مصحوبا باضطراب فى العقل وخفقان فى القلب وارتعاش فى الجسم ، وبعكس ذلك أرى الآن الأطفال يذهبون الى المدارس راضين مسرورين ـ نتيجة منع الضرب فيها ودخول الألعاب الرياضية .

● الحريه :

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأى ونشر كل مذهب وترويج كل فكر .

فى البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بأن لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادىء التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية . يقول ويكتب ما شاء فى ذلك ولا يفكر أحد ، ولو كان من الد خصومه فى الرأى ، أن ينقص شيئا من احترامه لشخصه متى كان قوله صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ .

● العبقرية :

يظهر لى أن الارتقاء فى الانسان تابع على الخصوص لجهـــازه العصبى ، فأكثر الناس استعدادا للرقى هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغا عظيما وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة ، أولئك هم السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون ، أولئك هم الســــابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى الصف الأول مخـاطرين بأنفسهم ، يتنافسون فيما بينهم فى مصادمة كل صعوبة ، من بينهم تنتخب القدرة الحكمية خيرهم وتوحى اليه أسرارها فيصير شاعرا بليغا أو وليا طاهرا أو فيلسوفا حكيما أو نبيا كريما '.

● الفنون الجميلة :

لعل أكبر الأسباب فى انحطاط الأمة المصرية تأخرها فى الفنون الجميلة : التمثيل والتصوير والموســيقى ، هذه الفنون ترمى جميعها على اختلاف موضوعها الى غاية واحدة هى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، فاهمالها هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور .

***

دخلنا قصر اللوفر ، وكنا أربعة من المصريين ، لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم ، فبعد أن تجولنا فى غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسى قائلا : أنا اكتفيت بما رأيت ، وها أنا منتظركم هنا. وقال الثانى : اتبعكما لأنى أحب المشى ، واعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمى ، وسار معنا شاخصا أمامه لا يلتفت الى اليمين ولا إلى اليسار ، وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة

المصاغ والحلى ، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر الى الذهب ثم صاح : (هذا الطف ما فى هذه الدار) ! وصلنا الى تمثال الهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع ، فسألت دليلنا : ماذا تساوى هذه الصورة اذا عرضت للبيع ؟ فقال : انها تساوى ثروة أغنى رجل فى العالم ، تساوى كل ما يملكه الانسان ، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمنا لها اذ لا حد لقيمتها .

● الأتراك :

مهما كان الرأى فى حكم الأتراك لمصر فلا ريب عندى ان الأمة المصرية استفادت منهم كثيرا ، وجدت فيهم انسانية راقية فاقتبست منهم بالمعـــاشرة والمصاهرة النظافة وترتيب المسكن والتفنن فى الملبس والمأكل وكثيرا من العادات الحسنة والصفات الأدبية .

واذا كان التعليم قرب ما بين الرجال من المسافة فهى لا تزال الى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية حتى أنك لترى الرجال المهذبين يتهافتون على طلب الزواج بالأولى بقدر ابتعادهم عن الثانية ــ واليوم وجد المصريون والأتراك أمامهم انسانية أرقى ، اختلطت بهم اختلاطا كبيرا ، فأخذوا يقلدون الأوروبيين فى جميع شئون حياتهم ؛ ولا أرى ان هذا التقليد سيكون له أثر حميد فى انقاذ أمتنا من الحال التى هى فيه الآن .

● الرأى العام :

اذا رأيت الرأى العام يرمى أحد رجال الحـــكومة بالخيانة ، ساخطا عليه ، شديد الرغبة فى سقوطه ، فاعلم، انه غالبا رجل طاهر وعامل نافع .

وإذا رأيت الرأى العام معاديا لكاتب ، وأعد له خصوما يتســـابقون الى نقض أفــكاره وهــدم مذهبه ، وعلى الخصوص اذا رأيتهم ذهبوا فى مطـــاعنهم الى السب والقذف ، فتحقق انه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق .

ما هو الرأى العام ؟ .

أليس هو فى كثير من الأحوال هذا الجمهور الأبله ، عدو التغيير ، خادم الباطل ، ومعين الظالم ؟ .

لو انتظر المصلحون دائما رضاء الرأى العـــام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء .

● اللذة : ومضة لا تتكرر :

صنف الطعام الذى أعجبك ، أو قطعــة الغناء التى أطربتك ، أو ليلة الأنس التى راقتك مع محبــوبتك ، أو غروب الشمس البديع الذى خفق لأجله قلبك ، اذا قصدت تكراره فانك لا تستطيع أن تجد السرور الذى شعرت به لأول مرة ، فلا تحاول أن تنال ذلك فى اعادته .

● الجبان المدعى :

قبيل الغروب وقف بنا « وابور النيل » الذى كان يحملنا بجانب غيط مزروع ، وكان يشتغل فيه رجلان لمح أحدهما ثعبانا غليظا قصيرا ففر وهو يصيح (ثعبان ثعبان ثعبان) .

أما الآخر فتقدم اليه حاملا فأســه وضربه بها عــدة ضربات حتى قضى عليـــه ، ثم تركه فى مكانه ، وأخذ

سلاحه وعاد الى عمله ، ولم يتكلم فى أثناء ذلك بكلمة ، وحينئذ تحرك زميله ومشى محترسا على أطراف قدميه شاخصا الى الحيوان ، واقترب منه بطيئا بطيئا ، ولما وصل اليه لمسه بطرف الفأس التي كانت فى يده وقلبه مرة ثم مرة أخرى حتى اذا تحقق انه مات صاح (يا ابن الكلب !) وطعنه بالفأس طعنة قوية .

ولما رأى الثعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به الى الجسر ، وكان فى هذه الساعة عامرا بالمارة ، فاستوقف الأطفال والنساء والرجال وصار يقص الواقعة عليهم قائلا : (هجم علينا فقتلناه) وفى آخر الرواية يلقى الثعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء ويهرب الأطفال فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن ، وما زال كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا جميعا ، وهو فى مقدمتهم حاملا فريسته . أليس هو الحال دائما فى جميع مظاهر الحياة الدنيا : ترفع من رجال العمل عن حب الظهور ، وجرأة من رجال القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتبجح بها ! .

● سحر المطبعة :

يفعل الكلام المطبوع فى نفس الجاهل فعل السحر فيستولى على عقله ، فاذا روى عن كتاب قال لنفى كل شبهة : هذا مدون فى الكتب ، واذا نقل عن جريدة قال : هذا مذكور فى الجرنال .

فاذا اعترضت عليه بأن الخبر يحتمل الصدق وان الخطأ جائز على صاحب الكتاب أو الجرنال ، أجابك :

نعم : ولكن لابد أن يكون الـكاتب تحرى عن الحقيقة قبل النشر لأن صناعته تقضى عليه بذلك .

***

● توجد كلمات ألصقها الـكتاب بعضها ببعض من قرون طويلة ، فحيث تكون احداها تكون الأخرى ، حتى ملت طول العشرة ، كالعالم العلامة ، والحسيب النسيب، والصديق الحميم ، والسيدة المصونة . فاما طلاق يرد اليها حرية الاقتران بكلمات أخرى ، واما على الأقل حيلولة مؤقتة تستريح فى أثنائهـا من هـذه الشركة القهرية .

***

● **الذوق :**

من أعظم ما يصـاب به المرء أن يحـرم من الذوق السليم .

الذوق السليم هو هذا الاحساس الفطرى الذى ينمو ويتهذب بالتربية ، هو الشـعاع اللطيف الذى يهـدى صاحبه الى أن يقول ويفعل ما يناسب المقـام ويجتنب ما لا يناسبه .

وعكسه هو الذوق المصطلح عليه بين جماعة الظرفاء عندنا ، هم على يقين من ان الذوق لم يخرج من مصر .

يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية ، والعاقل يكتفى بما يراه حوله ويسمعه ، يتفرج مجـانا على وقائع لم تبلغهـا مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين .

● ضيافة !

كان خمسة من ارباب المعاشات ، خمسة شيوخ ، مروا على فروع الادارة المصرية القديمة وتقلبوا فى مناصبها العالية من مديرية الى مجلس الاحكام الى ديوان الأوقاف الى السكك الحديدية ، اختاروا بيت احدهم ، أكبرهم رتبة ، وصاروا يجتمعون فيه من الصبح الى الظهر ومن العصر الى بعد الغروب ، جالسين على الكراسى فى بستان عتيق مهمل ، ولكنه واسع الأرجاء ، تطاول أشجاره السماء ، هواؤه معطر بروائح الزهور ، لا يصل اليه شيء من ضوضاء الطريق ، ولا يسمع فيه غير تغريد الطيور ، ماذا كانوا يقولون ويفعلون ؟ كانوا يقضون الأيام الباقية من عمرهم مؤتنسين بهذا الاجتماع ، مكتفين به لسد فراغ حياتهم ، وفى بعض الأحيان يلعبون النرد ، فيتقدم منهم اثنان الى ميدان المبارزة ، ويلتف حولهما الباقون للفرجة ، واذ ذاك ترتفع أصواتهم ــ شيش بك ــ بنج جهار ــ خانه ــ اضرب ــ ويتناقشون بحدة ، هذا يضحك لأنه غالب والآخر يغضب لأنه مغلوب ، فاذا انتهوا من اللعب أخذوا يتحاثون ويذكرون ماضي حياتهم وسيرتهم فى أعمالهم بالتفصيل والتدقيق فى تواريخ السنين والشهور ، ويخرجون من أعماق حافظتهم الأمينة حوادث مهمة ووقائع غريبة رأوها أو سمعوها أيام حكم الخديويين السابقين ، يروونها ويكررونها مرات كلما عرضت لذلك مناسبة ، ويتخلل هذا الحديث تهكم بقواعد الادارة الحديثة واستهزاء برجال الحكومة الحالية وملاحظات على فساد أخلاق هذا الجيل وعلى اختلال الأمن وضياع احترام الصغير للكبير والوضيع للرفيع والمحكوم للحاكم ، وذلك بعبارات وألفاظ هادئة مجردة عن حدة الشهوات

والتأثر ، سوى نوع من التألم كان يبدو أثره أحيانا على وجوههم . وهناك موضوع كان يتردد فى غالب الاحيان فى حديثهم ، هو تقدير سن كل واحد منهم ، متى طرقوه جرهم الى مناقشات شديدة وعمليات حسابية طـويلة وخلط فى الارقام والوقائع وعوج فى الراى واباء للحق ومغالطات ظاهرة ، كانوا هم أنفسهم أول من يضحك منها بصوت عال ضخم يسمع دويه من مسافة بعيدة ، ومهما بلغ جهدهم فى الفحص والاخذ والرد فقد بقيت هـذه المسألة غامضة ، وظل كل منهم حافظا مركزه متمسكا بزعمه . وفى يوم حضروا كعـــادتهم الى بيت زميلهم فوجدوه قد مات فى الليل فنقلوا مركز اجتماعهم فى اليوم التالى الى بيت أحدهم ، واستمروا هم الاربعة على حالهم المعهودة ، ولكن نفوسهم كانت تشعر دائما ببعض الحزن كأن روح فقيدهم كانت تطوف حولهم وتشكو اليهم انفرادها وتدعوهم الى الانضمام اليها ، فلبى ثلاثة منهم هـذا النداء المستمر ، وماتوا واحدا بعد الآخر فى مدة قصيرة ، وبقى خامسهم الى الآن منفردا كئيبا لا يتكلم ولا يخرج من بيته ، لا يدرى ماذا يصنع بحياته ، ويرقب الموت الذى يخلصه منها .

***

● ليس نقـدا :

أتعرف حسين بك ؟ .

ـ لا ـ ؟

رجل خفيف ولطيف لا تغيب البشاشة عن وجهه ولم يره أحد قط غير مبتسم . اذا قال لك : نهارك سعيد ، ضحك ، واذا أخبرته ان الهواء طيب ضحك ، واذا سمع

ان ڑيذا مات ضحك ، زينة المجالس ، وانيس النوادي ، يرى نفسه مكلفا بوظيفة السرور فيها ومنوطا بنشر التفريح حوله ، يستخدم كل شيء لتسلية نفسه واصحابه فيجد في أهم الحوادث موضوعا للتنكيت ، وفي احسن الرجال محلا للسخرية . لو ضحيت حياتك في أشرف الأعمال لابد ان يفتش فيها عن الجهة التي يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس .

بين هذا الهذيان القبيح والانتقاد الهزلي الصحيح فرق عظيم ، الانتقاد الهزلي الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر الى موضع العيوب في الانسان وجهات الضعف في الحوادث فيبتسم بسكون ولطف ، واذا علا صوته للضحك فليس لأن الضحك غايته بل بعده وسيلة للفت النظر الى شيء يحزنه وأمر يبكيه .

غرضه الاصلاح فيجاهد فيه بالطريقة التي يراهامناسبة لاستعداده الطبيعي . لا يحقر احساسا شريفا ولا يصغر عملا كبيرا وانما يحارب الرذائل والدنايا ويلحق بهما اخف ما يمكن من الضرر ، في هذا الأسلوب نبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والقصصيين في اوروبا ، وعدوا من أعظم رجال الأدب والفلسفة .

***

● **تحايل :**

أخبرني موظف في الأزهر ، لا يخفى عليه شيء من أسرار الطلبة ، انه كلما أراد واحد ممن فسدت أخلاقه منهم أن

يسير وراء شهوته ذهب الى أحد البيوت العمومية وعقد على امرأة بحضور شاهدين على مهر خمسة قروش أو ما يقرب من ذلك ، فاذا قضى شهوته طلقهـا وخرج معتقدا انه برىء من كل ذنب .

***

● سئل ح . بك ـ ما رأيك فى كتاب « تحـــرير المرأة » ؟ .

فأجاب : ردىء ! .. هل قرأته ؟ ـ لا ـ اما يجب أن تطلع عليه قبل الحكم برداءته ؟ ـ ما قرات ولا اقرا كتابا يخالف رأيى ! .

***

● أخلاق جديدة عند الشبان : علمت ان بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معـــلومات مفصلة عن البنات اللاتى يرشحون أنفسهم لخطبتهن ، وعلى الخصوص عن حالتهن المالية وحال بيوتهن ، فيرصدون فيها ما تملكه من الأطيان والأماكن وقيمة ما تساويه ومقدار ريعهـــا وسن والدها والأمراض التى يكون مصابا بها وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته الخ معلومات لا يفـــكر فى جمعها اشد المرابين احتياطا اذا أقرض مبلغا جسيما بدون تأمين .

● **الحجاب الفتنة :**

رأيت يوما فى شارع الدواوين امرأة تمشى وأمامهـــا خادم ، يظهر من هيئتها انها من عائلة كبيرة ، طويلة القامة ممتلئة الجسم ، عمرها بين العشرين والثـــلاثين ، فى وسطها حزام من الجلد مشـــدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقا تاما ، الجزء الأسفل بارز عند

الارداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل ، والقسم الأعلى غير مستور ، وانما الملاءة مشبوكة فى راسها مسدولة على كتفيها وذراعيها الى المرفقين ، على وجهها قطعة من الوسلين الرقيق أقل عرضا من الوجه ، تحجب فاها وذقنها حجابا لطيفا شفافا كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر ، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر الى منتصف الراس مكشوفة . كانت تمشى خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجا كما تفعل الراقصة على المرسح ، وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل الى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام ، وبالاجمال كان مجموعها تحريضا مهيجا لحواسهم ! .

● كتبت والدة من قدماء المصريين على قبر ابنها : « من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن يحبهم ! » . كلمة خرجت من نفس ذاقت آلام الحياة بجميع انواعها ودرجاتها ، كلمة يفزع من هولها كل من فارق عزيزا محبوبا .

***

● لا فرق بين من يفشى سرا أؤتمن عليه وبين من يختلس مالا أودع عنده .

***

● **الزواج :**

المصريون الذين يفهمون ان للزواج معنى غير مجرد الاستمتاع الموقت هم تابعون لقانون الحب والأمانة والاخلاص لنسائهم وأولادهم ، قانون أعلى من مبادىء حب الذات التى وضعها بعض فقهائهم .

ما دام الطلاق متروكا الى رأى الزوج يستحيل ان يثبت فى نفوس الرجال والنساء ان أساس الزواج فكرة الاستمرار والمعاشرة الى آخر الحياة .

***

الزواج عندنا حيازة رجل لامرأة يوما أو شهرا أو سنة أو عدة سنين حيازة تنتهى بمجرد ارادة الرجل ، ولا فرق بينها وبين الحيازة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع زوجته الى الباب ويقول لها : اخرجى .

***

• السآمة علامة النفس الشريفة .

***

• **التربية :**

يولد الانسان شريرا خبيثا قاسيا محتالا كذوبا . الولد الصغير لا يعرف الا نفسه ولا يرى الا نفسه ولا يحب الا نفسه ولا يتألم الا من نفسه ، وفيه أثرة هائلة لا حد لها . هذه العيوب تنمو مع الطفل ، وتبقى فيه حتى يصل الى سن الرجال ، فيتعلم كيف يخفيها ، يحسن ظاهره ويستر باطنه . أعظم ما تنتجه التربية الجيدة اذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة ، ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها .

***

• **الوطنية :**

من ذا الذى ينكر على المصريين تقدمهم فى الاحساس الوطنى ؟ عاش آباؤنا وتعلموا واشتغلوا بالصناعة

والتجارة ، وخدموا أمتهم ، وفتحوا البـــلاد وحاربوا الأمم ، ولم نسمع عنهم انهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة ، أما الآن فأينما قرأت وفى أى مكان وجدت لا أسمع الا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفانى فى خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمـدرسة الوطنية وحزب الوطن ، والبيوت التجارية والمحـال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التى تشغل وتبيع وتعالج وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن دينا جديدا من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر ، صار كعصارة الطماطم يوضع فى كل شىء ليكسبه ذوقا حامضا يجعل تناوله سهلا مقبولا ! .

● **التقلب :**

أردنا أن نحصى تقلبـــات أحد معـــارفنا فى آرائه العمومية ، فوجدنا انه كان عرابيا ، فلما انتهت الثورة بالفشل صار يطلب السجن والشنق لشركائه وأصحابه ! وكان من المقربين عند أحد رؤساء الحكومة السابقين ، فلما ترك الحكومة تخلى عنه وانضم الى أعدائه ، وصار أكثرهم سفاهة فى الطعن عليه ! وهو كما يعرف جميع زوايا قصر عابدين لا يجهل شيئا من قصر الدوبارة ! كان يتودد الى أحد أصحاب الجرائد ، ويمده بأفكاره وأخباره ، ثم قطع كل علاقة به وتحول الى أشد خصومه! وأخيرا اشـــترك فى تأسيس جريدتين مبدأ كل منهما مخالف للآخر ! ومن المؤكد ان خاتمة حيـــاته ستكون حميدة ، لأنه متى شعر بقرب ملاقاة ربه تقرب اليه بالدعاء والصلاة ! .

● اللذة الحقيقية :

اللذة التى تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا علو المنصب ، ولا شىء من الاشياء التى يجرى وراءها الناس عادة ، وانمـــا هى أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم .

● البلاغة :

الكاتب الحقيقى يجتنب استعمال المترادفات ، فـلا يأتى باسمين مختلفين لمعنى واحد فى مكان واحد ، لان ذلك يكون حشوا فى الـكلام مستهجنا ودليلا على فقر فى الفـكر والخيال ، ولكن اذا كان المقال يستدعى ذكر عدة معان متقاربة يجمعها معنى واحد فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن ، وقد يكون مطـلوبا اذا كان لازما لتسهيل فهمها أو اظهار الفروق التى بينها . كـذلك الكاتب المجيد لا يضع صفة بجانب الاسم الا اذا اقتضى الحال أن يميزه بصفة مطابقة للواقع ، على ان الاعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التاثير هو أقل درجات فن الكتابة ، ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذين يعولون فى الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلا دقيقا ، أو تشريح الانسان وفتح جوفه وكشف ما خفى من أعصابه وسبر غور احشائه والتسمع على نفسه لادراك ما يدب فيها من النزعات والخـواطر والأميال والحركات ، وبوصف منظر الشىء بهيكله التام بأجزائه كلها ليحدث فى نفس القارىء أو السامع صورة كاملة وشعورا تاما وأثرا باقيا .

● جنازة :

ما رايت جنازة مسلم الا اخجلني منظرها . هـــذه الجمال التي تحمل الفواكه ويلتف حولهـــــا الأطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقى لهم منها على الأرض ، وهذه الجاموسة المسكينة التي يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت ، وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضا وليس فيهم الا الاعمى والأعرج والأعور ، ويمشون بسرعة غير منتظمة ، لابسين نيابا قذرة ، صائحين بأصوات مزعجة ، كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة ، وهذا النعش المحمول الذى يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة الى جهة اليمين وتارة الى جهة الشمال ، وأحيانا يطير فى السماء ان كان من الأولياء المقربين ! .

وهؤلاء النسوة اللاتى صبغن أيديهن ووجــوههن ، وعفرن بالتراب رؤوسهن ، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل اليه باشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة ، ما هــذا كله ؟ أمجمع مجــانين ؟ أم نفر بهم مس من الشياطين ؟ ألعوبة أطفال ؟ أم معرض كرنفال ؟! .

في الجنــازة التى تمر فى الطريق شىء من جميع ذلك ، ولا ينقصها الا امر واحد وضعت لأجله هو : اظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون .

***

لما كنت فى الآستانة توفى فى الليل بغتة رجل كان بيته ملاصقا لبيتنا ، فلم أسمع عويلا ، ولم نشعر بحركة غير اعتيادية ، وفى الضحى خرج النعش ونقل الميت الى

القرافة مشيعا بأقاربه وأصـــحابه من الرجال فقط ، ومشيت معهم فلم يرتفع صوت واحد منهم بتلاوة القرآن أو بذكر الله او بالصلاة على النبى ، بل كانوا يسيرون صامتين خاشـــعين مطأطئين رؤوسهم ، فلما انتهوا من دفنه عاد أهل الميت الى بيتهم واغلقوا الباب كعادتهم .

● **شراهة :**

دعينا للعشاء عند م . باشا ، وكنا ستة أو سبعة من الأصحاب ، مسرورين باجتماعنـا ، مستعدين للتمتع بمسامرة ودية مجرده عن التكلف ، وبينما نحن متجهون الى قاعة الطعام اذ دخل علينا زائر من المشايخ ، فاضطر صاحب المنزل الى أن يدعوه الى الاكل معنا ، فدخل أمامنا ، واختـــار لنفسه أحسن مكان ، وكان أول الجالسين . جلس على الكرسى القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله ، ثم برم كم القفطان والقميص الذى تحته برما محكما فانكشف الساعد الى المرفق ، فتمثل لى جالسا فى مكان من الميضاء يستعد للوضوء ! اشتغل بالأكل ولم ينطق بـكلمة أو يصغ لحديث ، ولما كان بعيدا عن المائدة كان كلما يتناول شيئا من الطعام يسقط بعضه الى ملابسه ، وكان يلقى العظام على مفرش المائدة ، فلما امتلأ بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها فضلات الأكل فيقذفها من فمه بقوة يمينا وشمالا .

وبينما نحن شاخصون الى حركات هذا الشيخ صاح أحدنا ــ آه يا عينى ــ وقام واضعا يده على عينه فالتففنا حوله وسألناه الخبر ، فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت فى عينيه ، فتأملنا فلم نجد فيها أثرا ، فضحك وقال : انها نفذت فيها وخرجت من الجانب الآخر ! .

● **الشكل والجوهر :**

كلما راى الناس ان حالتهم العمومية اصبحت على غير ما يحبون ظنوا ان العيب فى النظام لا فى الرجال ، وفكروا فى وضع قواعد جديدة للسياسة والادارة والقضاء ، مؤملين ان يجدوا الاصلاح الكبير .

مثلهم كساكن بيت ضعضعت جسمه الرطوبة فأراد أن يتخلص منها فغير اثاث البيت ورتبه على غير الشكل الأول ــ تعب ضائع .

***

● **الرغبة والاستعداد :**

بنتى الصغيرة التى عمرها خمس سنين تظن أنه يمكنها ان تاتى بنفسها كل ما تراني أعمله ، فاذا امسكتها من يديها ورفعتها من الأرض لأقبلها تقول لى : أنا ايضا أرفعك ، وتمسكنى بيديها من افخاذى وتجهد نفسها حتى يحتقن وجهها لتحملنى كما حملتها .

واذا رات ان رجلا عبر قناة ماء بوثبة تحفزت لتفعل مثله ، تظن أن كل ما ترغبه جائز سهل . كذلك الرجل الجاهل ، يخيل له أنه كفء لأصعب الأعمال ، ومستحق لأصعب المناصب ، ومساو لأرقى الرجال ، يظن انه منح استعدادا فطريا يجعله قديرا على كل شىء ، يظن انه يطيق كل ما يريد .

***

● **عرس :**

كنت فى ليلة فرح ، وكانت الحفلة من افخم واجمل

ما رأيت من نوعها ، انفق فيها الذهب بلا حساب .
وعند العاشرة دخل العروس ، وصدحت الموسيقى أعلانا بذلك ، فقلت لصديق كان جالسا بجانبى : هذا اعلان لعامة الحاضرين بامر سيتم بين الزوجين . كان من حسن الذوق ان يبقى مستورا . وما أحسن ما اعتاده الغربيون ، فان الزوجين منهم يكونان مع المدعوين اذا بهما قد اختفيا عن أعين الحاضرين بدون ان يشعر بهما أحد ، ويغيبان عدة أسابيع ، فوافقنى صديقى على ذلك ثم قال : أتريد أن أقص عليك لهذه المناسبة شيئا رأيته بعينى ؟ قلت : نعم ، فقال :

كان سنى لا يتجاوز تسع سنين ، ولا تزال صوره الواقعة التى سأقصها الآن محفوظة فى ذاكرتى كما لو كانت حصلت منذ أسبوع . كان المنزل المقابل لمنزلنا يستعد شيئا فشيئا لحفلة كبيرة ، نصبوا من أجلها سرادقا واسعا ، ووضعوا فيه الكراسى المذهبة ، وعلقوا البيارق والنجف ، وكل يوم يمر يزيد فى رونق الزينة وترتيبها ، فلما جاءت الليلة الكبيرة أضيئت الشموع ، وصدحت نغمات الموسيقى ، وتقاطرت وفود الرجال والنساء الى البيت ، يدخلون فيه أفواجا ، فيجلس الرجال فى الصيوان ، وتختفى النساء فى بيت الحريم الذى كانت تسطع فيه الأنوار وتخرج من نوافذه .
ونحن سكان هذا الشارع الصغار عشرين أو ثلاثين طفلا من كل سن كنا أول المتفرجين وأكثرهم تمتعا ، فرحين بهذه المناظر البراقة والأنوار الذهبية والأضواء المنتشرة ، نجلس ونقوم ونجرى ونضحك ونتشاجر سكارى من ضوضاء الأصوات وضياء الأنوار .

فلما زف العروس بعد العشاء على الطريقة المعهودة ،

دخل الى البيت ودخل وراءه بعض الأولاد وكنت من بينهم ، فرايت سلم المنزل وفسحة الدور الأول مملوءة بالنساء وهن يتزاحمن للوصول الى الصف الأول ليشاهدن العروس داخلا . وكان أحد أقاربه ماشيا أمامه ، فصار يدفعهن بيديه ليخلي له الطريق حتى وصل الى غرفة عروسه ، فأدخل فيهـــا واقفل الباب عليه ، وحينئذ وقف النسوة امام الباب كأنهن يترقبن حادثا كبيرا ، وهذا لم يمنعهن من المحادثة والمجادلة والضحك على شكل غير منتظم يستحيل معه التمييز بين من تقول ومن تسمع ، ومن حين الى حين تنادي احـداهن : « هس يا ستات » ، وتستمر هي في الكلام أكثر من غيرها . ما الزمن الذي مضى ونحن على هذا الحال ؟ لا أدري . ثم سمعت صياحا متكررا آتي من داخل الغرفة ، فازداد القلق والاضطراب بين جماعة النساء ، وما زال يتضاعف حتى أدى بهن الى الدق على الباب ، وبعد برهة فتح الرجل الباب وظهر عاري الرأس بارق العينين محتقن الوجه ، وتكلم مع أمه وأم زوجه كلاما شديدا مصحوبا باشارات الغضب ، ومن وقت لآخر كان يقول : ماذا أصنع . . لا أقدر . . ! وبعد مداولة صغيرة رجع ودخلت وراءه المرأتان ، وتبعه الجيش الذي كان واقفـا وراء الباب مدفوعا كالسيل ، وقد جريت معهم حتى صرت قريبا من السرير ، فرأيت العجوزين قعدتا على صـدر البنت ، وقبضت احداهما على ذراعيها ، والأخرى على فخذيها ، فزاد صياح البنت ، وبكاؤها ، وتقدم الرجل وبيده خرقة بيضاء ، رأيتهــا بعد ذلك ملوثة بالدم ، فخرجت هاربا من هذا المنظر الشنيع ، لا أشك انهم ذبحوها ! .

● التحرر :

في عهد الاستبداد ، في الوقت الذى كانت فيه كلمة محمد على أو اسماعيل تـكفى لاعدام من يغضب عليه أو ارساله الى البحر الأبيض ، فى تلك الأيام السوداء التى كانت فيها حياة الانسان وحريته وأمواله مهددة بأنواع الخطر ، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه فى الوجود ضمانة تحميه ، فى ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم الى صد ارادة الحاكم والتصريح بآرائهم .

واليوم زالت أسباب الخوف من الحاكم ، فهل زادت قدرة الناس على المجاهرة بالحق والتصريح بآرائهم ؟ من ينظر نظرا سطحيا يظن اننا بلغنا من استقلال الراى مبلغا لا ينافسنا فيه أحد ، حيث لا يجد من الأمة أدنى أثر للخوف من الحكومة ، بل يرى بالعكس ان الاستخفاف بها صار عاما ، وانه لم يبق بين جميع طبقات الموظفين شخص محترم ، اللهم الا اذا كان جاويش البوليس أو خفير الترعة ! .

ولـكنه اذا حقق النظر لا يلبث أن يرى حرية الانتقاد لم تستعمل الى الآن فى أعمال الحكومة الا الآن هذه النغمة الجديدة تطرب آذان السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم .

أما المسائل الأخرى : الدينية والاجتماعية والمتعلقة بالأحوال الشخصية والعادات والأخلاق ، فلم يتجه فكر الباحثين الى انتقادها ، فهل لم ير أحد منهم فيها عيبا ينتقد ؟ كلا ! وانما هم يرون العيوب ولا يجرأون على اظهارها .

● المشروعات الخيرية :

قال أحد أعيان الأقاليم : في هذه الأيام كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمدارس والكتاتيب والمستشفيات ولا يمد يده احد من الامراء والذوات وكبار الموظفين والاغنياء المقيمين في العاصمة للاشتراك فيها ويتحمل جزءا من مغارمها ، يجب على عمد القرى واعيانها أن ينشئوا جمعية للدفاع عن أموالهم ، يسمونها جمعية منكوبي المشروعات الخيريه ! .

● كلما قدرت على أن أقوم بخدمة طلبها مني صديق أسفت على خسارته وعددته عدوا جديدا .

● قادتنا :

ليس في مصر عالم محيط بجميع العلم الانساني ، وليس بيننا من اختص بفرع مخصوص في العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به ، ولم يظهر منا فيلسوف اكتسب شهرة عامة ولا كاتب ذاع صيته ، مثال هؤلاء هم قادة الراى العام عند الأمم الأخرى . والمرشدون الى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها ، فاذا عدمتهم امة حل محلهم الناصحون الجاهلون والسياسيون المشعوذون ـ والحقيقة المجردة عن الأوهام والأغراض ان كل ما وجد في مصر من الحرية والنظام والعدل لم يوجد ولم يستمر الا بعمل الأجنبي وعلى رغم أهلها .

***

طالب وظيفة :

زارني أحد اصحابي ، وكان يرافقه شاب من أقاربه

أتم في هذه السنة دروسه ، وطلب منى ان اتوسط له ليحصل على وظيفة ، فمددت يدى الى هـذا الشاب مسرورا فوضع فيها يدا فاترة وسحبها بسرعة . اشرت عليه بالجلوس على كرسي فاستحسن أن يجلس على «الكنبا» التى أردت أن أخص قريبة بها ، وقبل أن يجلس شمر بنطلونه بعد ان تحقق من انتظام تناياه ثم قعد ووضع رجلا على الأخرى . سألته عن الوظيفة التى يرغبهـا ففهمت انه يريد أن يعين فى وظيفة مرتبهـا خمسة وعشرون جنيها فى الشهر ، فأفهمته انه يطلب المحال ، وان لوائح الحكومة لا تجيز هذا الطلب ، فلم يقتنع ، وأخذ يقيم الأدلة على ان الحكومة اذا شاءت يمكنها أن تعينه بطـريقة استثنائية ، فقلت له : ولكن ما هى المسوغات التى تحمل الحكومة على تقرير الاستثناء الذى تطلب أن تتمتع به ؟ فقـال : كفاءتى ، فقطعت عليـه الـكلام ، وكررت له أن طلبه غير مقبول ، فحول وجهه عنى وأخذ يفتل شاربه بحـركة عصبية ثم التفت الى وقال : « ممنون ، نهارك سعيد » ، وخرج ، وتبعه قريبه بعد أن اعتذر لى بكلمتين ، فلما خرجا سرح فكرى فيما سمعت ورايت ، وتأملت فى حال هذا الشاب ، ووردت على خاطرى أحوال أخرى وقعت من أمثاله معى ومع غيرى ، أحوال تنذر بوجود حالة ادبية سيئة عند الكثير مع شبابنا ، تجعلهم صنفا خاصا لا يشبهون معها شبيبة الجيل المـاضى التى عاشرت كثيرا من فرادها ، ولا الشبيبة التى عرفتها فى البلاد الغربية واختلطت بها زمنا . هذه الواقعة حركت فى نفسى حياتى الماضية ، ومثلت فى ذاكرتى صور شبان محبوبين متحلين بالآداب والحياء والتواضع والانقياد ، وكانوا مع ذلك لا ينقصون

من جهة المعارف مما يتحصله الشباب فى هذه الايام ، وانما الفرق هو ان الشيء القليل الذى يتعلمه الشاب فى هذا الزمن يتورم فى مخه حتى يســـد فراغه ويجعله يتخيل انه يحمل كنوز السماوات والارض .

***

● **العبقرية :**

العقل والجنون شيئان متضادان ، ولكن حدودهما متجـاورة مختلطة . وفى الحقيقة لا يعرف احـدا أين ينتهى العقل وانى يبتدىء الجنون . ان كان التوازن بين قوى النفس هو علامة العقـــل ، فالنبوغ فى المدارك والخيال يكون غالبا نتيجة اختلال فى هذا التوازن .

يظهر أثر ذلك عند الكثير من اعاظم الرجال يشذون فى الأخلاق أو نوب عصبية أو ولوع بالاعتقادات الباطلة والخرافات الصـــــبيانية أو افراط معيب فى تطلب الشهوات أو بالانفراد عن الناس والتوحش أو بزيغ فى الحواس عن القوانين الطبيعية أو بأى أمر آخر يكون عنده مخالفا أو زائدا عما تشاهد عند متوسطى الحال فى الذكاء والاحساس .

ربما كان الابداع فى الاختراع والتاليف وما يستلزمه من احتقان المخ واشغال الذهن وحصر الفـــــكر وتأثر الأعصاب والجهد فى توليد المعانى من أسباب تعاظم هـذا الشذوذ الذى يجعل النابغة انسانا غريبا زائدا من جهة وناقصا من جهة أخرى .

***

● معاقبة الشر بالشر اضافة شر الى شر .

● مصطفى كامل :

١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ، يوم الاحتفال بجنازه مصطفى كامل ، هي المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى :

رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا ، وزورا مخنوقا ، ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات ، كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشيء من الدهشة والذهول ، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة يائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل المدينة .

ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس ، لم يجد سبيلا يخرج منه ، فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان .

أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ، ووصل صدى دويها الى جميع انحاء القطر .

هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل ! .

فهرس

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٢٤٨٢/٨٠
الترقيم الدولى ٥ ـ ٦٤ ـ ٧٠٣١ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة – ص ٠ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



لم يؤلف قاسم أمين فى حياته الا كتابين : « تحرير المرأة » ثم « المرأة الجديدة » والكتابان صغيران ، والكلام فيهما مرسل فى بساطة وهدوء وتواضع • ولكن هذا الكلام الهادىء البسيط أحدث أكبر ثورة اجتماعية عرفها تاريخ العرب الحديث : ثورة تحرير المرأة العربية وخروجها من قيود العصور المظلمة لكى تتمتع بحريتها التى وهبها الله اياها ثم ليفيد منها المجتمع ، لأن أى مجتمع سليم لا يمكن أن ينهض ويتقدم اذا كانت نساؤه مقيدات حبيسات لا يفيد منهن أحد •

وقد أثار قاسم أمين ـ ذلك القاضى الوديع ـ بكلامه عاصفة ، لان البديهيات التى قالها كانت بالنسبة لأهل العصر جرأة وخروجا على التقاليد والنظم وقواعد الحشمة والاداب حتى لقد ذهب نفر من المحتجين عليه وطلبوا مقابلة حرمه زاعمين ان هذا حقهم بحسب كلامه نفسه ، وحاول أن يقنعهم بانه طالب بحرية المرأة ولم يطالب بالفوضى وتخريب المجتمع ••

هذا كله هو موضوع الكتاب الذى نقدمه ضمن سـ[illegible] هذا الشهر ، أنه دراسة لقاسم امين وآرائه فى تحر[illegible] قواعد الاسلام نفسه ، ود• محمد عمارة باحث متـ[illegible] وعقل مجدد فى كل ما يتعلق بالفكر العربى الاسلامى [illegible] اذ ينشر هذا الكتاب يساهم مساهمة ايجابية فى منا[illegible] لانه لازال هناك من بيننا من يرون أن قاسما أمينا كـ[illegible] أضر بالمجتمع العربى بأرائه ، وهم ينسون ان المرأة [illegible] حتى لو لم يكتب قاسم أمين كتابيه هذين •